

الحمد لله الذي جعل
العلم نوراً

طبعة دار الشروق الأولى
١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

القاهرة ١٦ شارع حسان - هاتف ٣٩٣٤٨١١ - ٣٩٣٤٥٧٨
وفيلا شروق - لكسي 0001 SHROK UN
بيروت ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧١٥ - ٨١٧٢١٣
وفيلا دلتا - لكسي BIIOROK 20175 L.R

فتان فوق شوشية

أجل عشرين قضباناً تحجب
وهي الشعر العذري

دار الشروق—

هَذَا الْكِتَابُ

بقلم : فاروق شوشة

كثيراً ما كنت أتوقف - أثناء البحث في كنوز لغتنا الجميلة - أمام نصّ شعري فاتن ، لشاعر عربي عاشق ، ينطق بصدق العاطفة والشعور ، وجمال التعبير والتصوير والأداء ، وأقول لنفسني : ما السبيل إلى أن يُقَسِّمَ هذا النصّ وأمثاله من عيون الشعر العربي ، كتاب واحد ، يسهل الاطلاع عليه ، والرجوع إليه ، والطواف بين صفحاته . . . وكانت البداية . . .

إن شعرنا العربي على امتداد قرون متطاولة حافل بالكنوز الثمينة ، والدرر الكامنة ، تنتظر دائماً من يجلوها ويعرضها ، مشرقة وضيفة ، نابضة بالحس الحضاري والوجدان الإنساني اللذين اتسمت بهما خلال هذه المسيرة الطويلة الممتلئة . وفي الوقت نفسه ، ما أندر المجموعات والمختارات الشعرية التي صدرت عن مكتبتنا العربية ، قديمها وحديثها ، لتضع بين يدي القارئ العربي ، والقارئ الأجنبي أيضاً ، تصوّراً عامّاً لروح الشعر العربي ، وإطاراً عامّاً لأبرز شخصياته وأعلامه ، وأكثر ملامحه صدقاً وأصاله ، اللهم إلا بضعة دواوين شعرية قليلة كالمفضليات للضبي والأصمعيات لأبي سعيد الأصبمعي

وجمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي ومختارات شعراء العرب لابن الشَّجْري .

ثم كان هناك لون آخر في تبويب هذه المختارات وتصنيفها بدأه أبو تمام بديوان الحماصة وتابعه البحرى ، والخالديان ، وابن الشَّجْري في حماساتهم ثم أبو هلال العسكري في ديوان المعاني . وأخيراً كان ديوان الشعر العربي الذي اختاره وصنّفه وقدم له الشاعر علي أحمد سعيد (أدونيس) . . . وكان صدوره منذ سنوات قليلة .

وظلت المكتبة العربية ، مكتبة الشعر العربي ، تعاني هذا الفراغ الكبير ، خاصة ونحن نترك الآن عصور الموسوعات والكتب الأمهات ونتجه مع إيقاع العصر وإزدحام متطلبات الحياة إلى المختصرات والمختارات : المَبْرُوءَة ، الموضوعية الاختيار ، المعتمدة في تصنيفها على ذوق عصري ، وفكر جديد ، يكشفان في الأثر الأدبي والشعري أبعاداً جديدة ، ويُسلِّطَان عليه رؤية جديدة كاشفة ، وبهذا يصبح تحاورنا مع التراث تحاوراً خصباً بقاءً ، لا يكتفي بمجرد التكرار أو إعادة الحفظ والاستظهار ، وإنما يتجاوز ذلك إلى إعادة عرضه وتنسيقه وتنظيم جداوله وروافده ، وإعادة اكتشافه والوعي به من خلال حساسيتنا الجديدة ورؤيتنا العصرية المتفتحة ، بهذا وحده نعطي للتراث فرصة أن يحيا فينا وأن نحيا فيه ، وأن يصبح له حق الامتداد الفعال والصحيح في حياتنا الجديدة .

وآثرتُ أن تكون البداية قصائد الحب في شعرنا العربي ، وما أكثرها ، وما أحفلها بالقيم الإنسانية والفنية والحضارية . ماذا لو اخترت من بينها أجمل عشرين قصيدة ، ليعيد تأملها وتدوَّقها القارئ

المعاصر ، مع قدر يسير من التقديم ، للنص والشاعر معاً ، بحيث يتم وضع القصيدة في إطار عصرها ، وفي داخل مناخها النفسي والتاريخي ، وفي إطار حركة الشعر العربي ودورانه المستمر .

وتوقعت أن يثور سؤال طبعي : ولكن لماذا هذا الرقم بالذات (عشرون) ؟ لماذا لم تكن هذه القصائد ثلاثين أو خمسين أو مئتين وعشرين أو أكثر أو أقل ؟

وهو سؤال كان سيتخذ له مكاناً أيضاً لو أن الاختيار قد وقع على رقم آخر ، والأرقام أولاً وأخيراً مسألة اعتبارية ! .



هذا الكتاب إذن رحلة مع عشرين قصيدة حب ، تبدأ من تخوم العصر الجاهلي ، فتتختر هذا العصر شاعراً يمثل حسنيته ونهمه وإقباله على متع الحياة وتوزُّعه بين يوميّه : يوم فروسيته وكرمه ويوم لهوه ومؤانسته ، وهي سمات العربي الفارس القديم ، في حبه ونظرفته إلى المرأة كما نجد لها لدى المنخلّ الإشكري .

ثم نتابع المسيرة ، ووفقاً مع صفحات شعرنا الأموي والعباسي ، يطالعنا وجه عمر بن أبي ربيعة : فتى قریش اللاهبي الماجن المولع بتعقب الحسان والتشبيب بهن ، ووجوه الصفوة الممتازة من الشعراء العذريين : مجنون ليلى وجميل بثينة وقيس لبنى وكثير عزة ، وعلى مقربة من هؤلاء العباس بن الأحنف ، وبين الطائفتين ينفرد يزيد بن معاوية ، ثم نطالع وجوه ابن الرومي وأبي فراس الحمداني والشريف الرضي ودوقلة المنبجي وابن زريق البغدادي ثم صفى الدين الحلبي - على غير ترتيب مقصود - وكلها وجوه تضيف لتجربة الحب في الشعر

العربي ألوانًا وتنوعات ومذاقات مختلفة ، تُثريها وتعمقها ، وتكشف عن جوهر الإنسان العربي والشاعر العربي في نظراته إلى الحياة والوجود من خلال المرأة . .

وعلى مسافة من هؤلاء نلتقي بوجهين آخرين يمثلان شعر الأندلس والمغرب العربي هما : ابن زيدون والحُصَري القيرواني ، ثم يطالعنا العصر الحديث لتتخبر من بين أعلامه : الشابي وعلي محمود طه وإبراهيم ناجي ومحمود حسن إسماعيل .



يبقى بعد هذا أن نشير إلى أن كل قصيدة من هذه القصائد العشرين امرأة جميلة ، امرأة معشوقة ، افتن في تصويرها وتجسيد مفاتها والهيّام بها شاعر عربي ملهم ، أضفى عليها من إبداع ريشته وحرارة عاطفته ما جعلها لوحة مكتملة الأبعاد والسمات غنية بالفن الجميل ، والشعور الصادق معًا .

فلنتأمل نحن - بدوق أبناء القرن العشرين - هذه الباقية من قصائد الحب ، ولننظر كيف كان الشاعر العربي يرى محبوبته وكيف كانت صورتها في نفسه ، شكلًا ولامع ووجدانًا ، وإلى أي حد يلتقي الكثيرون من الشعراء في رسم لوحة بعينها هي صورة هذه المحبوبة من المخارج ، تمثال جمال ، بمقاييس خاصة ، من خلال ذوق صحراوي معين ، خلع ظله على عصور شعرية متتابعة .

ثم لتأمل كيف استطاع الشعراء العذريون أن يكسبوا تجربة التعبير عن الحب أعماقًا جديدة ولامع وسمات لم تكن لها ، وكيف أصبحت نظرتهم إلى المرأة المحبوبة نظرة إلى كائن إنساني ، يموج بالمشاعر

والعواطف والأحاسيس ، وكيف ترك لنا هؤلاء العذريون في قصائدهم خلاصة لوعتهم وحرمانهم وتعففهم وعشقهم السامي المجرد ، هذا العشق الذي رفته تقاليد البادية العربية ثم غدته قيم الإسلام ومثله العليا ، فالتقت فيه قيم الفروسية والنبل والنخوة بقيم التعفف والتسامي والتطهر ، والذي أصبحت آثاره الشعرية - فيما بعد - ذخيرة فنية واجتماعية وحضارية نادرة المثال ، موفرة العطاء .

ثم لنمض مع قصيدة الحب العربية نفاذاً في التاريخ ، وعبوراً إلى أقطار وبلدان عربية جديدة ، وتجسيداً لحلم العاشق العربي ، في بغداد والقيروان والأندلس وتونس والقاهرة ، عبر عصور شتى ، وتراكمات حضارية ونفسية شتى ، فهي مرصد صادق التمييز والرصد لحقيقة هذه المسيرة التي قطعها الإنسان العربي في رحلة الزمان والمكان ، منطلقاً من إसार الماضي والمتوارث انعطافاً إلى آفاق الجدة والمعاصرة .

★ ★ ★

ولسنا نزعم أن هذه القصائد ، هي وحدها أجمل القصائد وأروعها وأكثرها تمثيلاً لحقيقة شعر الحب في ديوان الشعر العربي الكبير ، إنه مجرد اختيار خاص ، ساعد عليه ميل وهوى ، كثيراً ما تمجاذبني إلى بعض القصائد المختارة ، فعشت فيها طويلاً ، وتأملتها كثيراً ، فلما سنحت الفرصة لوضعها داخل هذا الإطار كانت أسبق من غيرها إلى ذاكرتي واهتمامي ، فعنيت بها قبل سواها . .

ومن المؤكد أن في شعرنا العربي عشرات بل مئات من قصائد الحب الجميلة ، لم تزل قابعة في مكانها بين الصفحات المطوية ، التي تراكم

عليها الإهمال والنسيان ، وأكاد أحس بها تتململ في رقبتها الطويلة ،
لعل يدًا تمتد إليها ، تنفض عنها الجحود والتنكر ، وتعيدها إلى مكانها
من دائرة اهتمامنا وتذوقنا . . وفي هذا فليتنافس المتنافسون . ولا شك
أن قارئنا العربي هو الرابع في النهاية عندما يجد بين يديه عشرات
المختارات والمصنّفات والدواوين التي تعيد ماء الحياة إلى هذه الكنوز
الدفينة ، واللوحات الفنية الإنسانية النادرة .

وأتركك أيها القارئ ، مع هذه القصائد العشرين ، التي تشكل في
مجموعها وثيقة شعرية وعاطفية فريدة ، تعطي لحناً أساسياً ممتداً ،
متعدد الإيقاعات والأنغام ، متنوع المقامات والضروب ، لتعبير
الشاعر العربي عن تجربة الحب .
وما أروع من تعبير !

فاروق شقير

فتاة الخنجر

للمفتخك البيشكوري

غاية ما تقوله لنا عنه كتب الأدب والتراث إنه شاعر جاهلي ، حفظ لنا الرواة قصيدة له ، لاهية ، ماجنة ، وهو إلى جانب هذا شاعر متظرف مؤثر للسهولة في القول .

فإذا ما أردنا الاستزادة ، ورجعنا إلى أمهات كتب التراث وجدناها تقول عن هذا الشاعر : اتهمه النعمان بن المنذر بامرأته « المتجردة » ، وكانت ذا جمال فاتك ، فأغرقه أو دفنه حياً ، أو أخفاه ، ويضرب به المثل لمن هلك ولم يعرف له خبر .. مات كما يروى سنة ست مائة وثلاث ميلادية .

لنحاول إذن أن نسلك سبيلاً آخر يقرّبنا إلى هذا الشاعر الجاهلي الذي استطاع أن يمشي في ذاكرة الشعر العربي بقصيدة واحدة ، ليست من مملقات العرب ، ولا مذهباتهم ، ولا هي من حماسهم ومفاخرهم ، ولا هي في تسجيل ما درم ومفاخرهم - إنها شيء آخر غير هذا كله .. وليكن هذا السبيل هو قصيدته

نفسها ، نستقرئها حقيقة هذا الشاعر ، وصورة نفسه ، ونطل
منها على وجدانه وأشواقه ومطامحه ..

شيء ما يلفت النظر في قصيدة المتخفل بن الحارث اليشكري
— وهذا هو اسمه الكامل — ذلك هو ما فيها من ظرف ورقة
وفكامة ، فهي تنطلق بشخصية ذلك العربي القديم ، يوماء
يوم وغى وطمان ويوم متعة ولهو وانطلاق ، اليوم خمر وغداً
أمر — كما يقول امرؤ القيس — هذان الوجهان لعملة الحياة
يمثلان معاً رحلة الوجود بالنسبة لهذا العربي القديم ، حتفه في
شباعته وفروسيته ، ومتعته في نشوته وبجونه بلا حدود .

لكن هذا الظرف وهذه الفكامة ، تبلورهما القصيدة على
نحو غير مألوف في الشعر العربي القديم . إن الشاعر الفاتك
الجبسور ، يقتحم الحِدر على فتاته في يوم لهوه ومتعته ، وهو
يفتخر للهوه ومتعته يوماً مطيراً ، لا يصلح لصيد أو قتال أو
زيارة ، وإنما هو يوم مؤانسة وفراغ بال ، وهو يبادلها حواراً
يشف عن رغبته الجامحة ونزوته العارمة ، فهي تلمس ما يحسمه
من حرور ، أي من حرارة واشتعال ، دليل فحولته
ورجولته ، وتسعد فتاته بهذا الاقتحام وتطرب له وتهش ،
والشاعر يخشى أن يقبدر إلى الذهن أن متعته بفتاته هذه
متعة عابرة ، فيعطي لعاطفتها وعلاقتها المشتركة عمقاً في الزمان
حين يؤكد بروح مرحة أنه يحبها وتحبه وأن بعيره أيضاً
يحب ناقتها ، يؤكد لظلول أمد الحبة وطول الإلفة بين العاشقين .

ثم يمعن شاعرنا الفاتك الجسور - والذي سجد له أشباهاً
في شعرنا العربي بعد ذلك - كوضاح اليمن وعمر بن أبي ربيعة
ومسلم بن الوليد (صريع الفواني) وغيرهم - يمعن في نظرفه
أكثر وأكثر ، مصوراً حاله وقد تملكته نشوة الشراب ،
وسرت فيه حُميتا الخمر فتخيل نفسه الملك النعمان رب
الخورنق ، وصاحب السرير - أي العرش - بلغة ذلك
الزمان ، فإذا صحا ، وعاد إليه صوابه وجد نفسه كما كان
ربّ الشوْبة والبمير ، لا يملك إلا ما يملكه العربي البسيط
شيأه وبمير.. والمقابلة هنا بين الحالين : حال نشوته وتصوراته
وحال صحوه وعودته الى الواقع مقابلة طريفة ، صاغها الشاعر
صياغة عذبة ، لا تكلف فيها ولا صنعة ولا تزويق ..

يبقى بعد ذلك أن نشير إلى لغة هذا الشاعر الفارس
الفاتك ، وتراوحها بين الجزالة والجيشان والوقع الأسري في
مستهل قصيدته وهو يتحدث عن شجاعته وفروسيته ومشاركته
للفرسان والأقران ، وبين نعومتها وسهولتها وانسيابها عندما
انتقل الى الحديث عن لهوه وبجونه وشرابه وتخيلاته ، وكأنه
يعطي لكل وجه من وجهي حياته لغته الشعرية الموائمة في
التعبير ، وإيقاعه الموسيقي المواكب في النفس والوجدان .

ولقد تركت هذه القصيدة - على بساطتها وقصرها وسهولتها
المتنعة - أثراً عميقاً في أشعار كثيرين حاولوا استلهاً الروح
المفعم بالحياة لدى المتخيل ، وقدرته الفذة على التصوير الموحي ،

بأبسط الألوان والظلال ، حتى إننا نجد شاعراً حديثاً هو علي
الجارم يقول في إحدى قصائده مخاطباً « بغداد » وكان وقتها
يمثل مجمع اللغة العربية في أحد مهرجانات العلم والأدب :

حتى يكاد يحبُّ نخلك نخلُ أهلي في رشيدٍ

وهو هنا ينظر إلى بيت النخل :

وأحبُّها وتحبُّني ويحبُّها فاقتها بعيري

وقبل الجارم بمصور بعيدة ، موعلة في القدم ، نجد الصورة
الرئيسية أو المشهد الرئيسي الذي تصوّره قصيدة النخل
- مشهد اقتحام الخدر على المحبوبة - متكرراً في شعر
« وضاح اليمن » الذي عاش بعد وفاة النخل بحوالي مائة عام :
وهو يقول :

قالت : ألا لا تلجن دارنا	إن أبا رجل غائر
قلت : فلإني طالب غرة	منه وسيغي صارم بائر
قالت : فإن القصر من دوننا	قلت : فلإني فوقه ظاهر
قالت : فإن البحر من دوننا	قلت : فلإني سابح ماهر
قالت : فحوالي إخوة سبعة	قلت : فلإني غالب قاهر
قالت : فإن الله من فوقنا	قلت : فربّي راحم غافر
قالت : لقد أعيدتنا حُبّة	فأت إذا ما هجع السامر
واسقط علينا كسقوط الندى	ليلة لا ناي ولا زاجر !

كما نجد المشهد نفسه متكرراً في شعر عمر بن أبي ربيعة ،
وهو يصف اقتحامه خباء محبوبته « نَعَم » وقد أخذ يترقب
مغيب القمر ورواح الرعيان ونوم السمار :

فلما فقدتُ الصوت منهم وأطفئت
مصابيحُ شُبْتُ بالعشاء وأنور
وغاب قنير ، كنت أرجو غيوبه
وروح رعيانٍ ونوم سمر
وخُفْتُ عني الصوت ، أقبلت مشية إلى
حباب ، وشخصي خشية القوم أذور^(١)
فبعيتُ إذ فاجأتها ، فتولت
وكادت بخفوض التحية . تجهرُ

وسوف يطالع القارئ النص الكامل لقصيدة عمر بن أبي
ربيعة بين صفحات هذا الكتاب ..

أما الآن فإلى قصيدة المتخل البشكري :

(١) ويرى البيت أيضاً : وركني خشية القوم أذور .

فتاة الحذر

شجاعة وكرم :

إن كنت عاذلي فسيري
نحو العراق ، ولا تحوري ^(١)
لا تسألني عن جُلّ ما
لي ، وانظري كرمي وخيري ^(٢)
وفوارس كأوار حرّ
النار أحلاس الذكور ^(٣)
شدّوا دوابر بيضهم
في كلّ بحكة القنير ^(٤)
واستلّموا ، وتلبّسوا
إنّ التلبّس للمغير ^(٥)

(١) عاذلي : لاثني ومعانتي . لا تحوري : لا ترجعي .

(٢) جُلّ مالي : كثرة مالي ومعظمه .

(٣) الأوار : شدة الترويح والاشتغال . أحلاس الذكور : فرسان الخيل الملازمون لظهورها .

(٤) الدوابر : الأواخر . البيض : جمع بيضة الحديد وهي تلبس في الرأس . القنير : مسامير الدروع .

(٥) استلّموا : لبسوا اللامات وهي الدروع . تلبّسوا : أي تحزّموا ، وهي علامة التأهب للإشارة على العدو .

وعلى الجياد المضمرا
تـ فوارسـ مثل الصقور^(١)
يخرجن من حبل الفبا
رـ يحفن بالنعم الكثير^(٢)
أقررت عيني من أول
شك والفوائح بالمبير^(٣)
وإذا الرياح تناوحت
يحوانب البيت الكبير^(٤)
ألفيتني هــ الـيدى
نـ ، بـري قداحي أو شجيري^(٥)

-
- (١) المضمرا : التي ضمرت ، أي هزات من كثرة الرياضة وسرعة الحركة .
(٢) يحفن : يسرعن .
(٣) من أولئك : أي من الفوارس . الفوائح بالمبير : النساء الذكيات الرائعة .
(٤) تناوحت : هتت من كل ناحية . الكثير : المشدود الى الأرض بالحبال .
(٥) ألفيتني : وجدتني . هــ الـيدى : خفيف الـيدى . بـري قداحي : بإجالاته ودورانه . الشجير : الغريب (إذا حل الجذب وجدتني خفيف الـيدى كرمًا وجوداً أوزع أقداحي) .

وأحبها وتحبني :

ولقد دخلتُ على الفنا
قِر الحِدَر في اليوم المطير^(١)
الكاعب الحنّام ترفُ
لُ في الدمقس وفي الحرير^(٢)
فدفعتمنا فتدافعت
مشي القطاة إلى الغدير^(٣)
ولثمتنا فتنتفت^(٤)
كتنفس الظبي الغرير^(٥)

ويروى البيت أيضاً :

(وعطفتمنا فتعطف
كتعطف الظبي الغرير)
فدنت وقالت ، يا منخئل^(١)
ما يحسك من حرور^(٢)

-
- (١) اليوم المطير : اختاره الشاعر لأنه يوم المؤانسة وفراغ البال
لا صيد فيه ولا غارة ولا زيارة .
(٢) الكاعب : التي رداً نديها في النهود . الدمقس : الحرير الأبيض .
(٣) القطاة : نوع من الطير يشبه الحمام ، وقيل : هو الحمام .
(٤) الغرير : ولد الطي وهو صغير .
(٥) الحرور : شدة الحرارة والتومج .

ما شفاً جسمي غيرُ جد
 ملكٍ ، فاهدني عنِّي وسيري ^(١)
 وأحبُّهُــا وتحبُّني
 ويحبُّ نأقثها بعيري

خيالات النشوة :

يا ربِّ يومٍ للمنفذ
 لـ ، قد لها فيه قصير
 ولقد شربتُ الخمر بال
 خيلِ الإناثِ والذكورِ
 ولقد شربتُ الخمر بال
 جسدِ الصحيحِ والأسيرِ
 ولقد شربتُ من المدا -
 مةٍ بالصغيرِ والكبيرِ ^(٢)

(١) ما شفاً جسمي : ما هزله وأضعفه . اهدني عني : الزمي
 الكون عني .

(٢) بالصغير والكبير : بصغير ماله وكبيره . أو بالدم والدينار .
 أو بالقدح الصغير والقدح الكبير .

فاذا انتشيت^١ فإني
 رب^٢ الخورتق^٣ والسري^٤
 وإذا صحت^٥ فإني
 رب^٦ الشوية^٧ والبعير^٨
 يا هند^٩ من^{١٠} لتي^{١١}
 يا هند^{١٢} .. للعاني الأسير^{١٣}

-
- (١) الخورتق : قصر النعمان قرب النجف في العراق . السري : يقصد به العرش ، ويرى : و « السدير » : وهو قصر آخر في الحيرة بالقرب من الخورتق اتخذ النعمان الأكبر لبعض ملوك المعجم .
 (٢) إذا صحت : إذا ذهبت نشوة السكر . رب الشوية والبعير : عربي لا يملك شيئاً إلا الشياه والبعير .
 (٣) هند : بنت النعمان بن المنذر بن ماء السماء حاكم الحيرة . العاني : المقيّد .

نفس

لعمر بن أبي ربيعة

وهذا فتى قریش المدلل ، وأول شاعر يبلغ من بينها
ويطير ذكره في القبائل ، وإذا بلغة الضاد على شفتيه تكلسي
رداءها القُرشيّ ، وطابعها العربي الأصيل ، في رقّة تفتن
القلوب وتستهيئ الأنباب ، وديباجة جزلة ولكنها ناعمة ،
متينة السبك غير أنها تفيض سلاسة وليونة ..

عند عمر بن أبي ربيعة ، ينعطف الشعر العربي ، ويتخذ
سمّاً خاصاً ومذاقاً خاصاً . هنا ، وللمرة الأولى في تاريخ هذا
الشعر ، يفاجئنا شاعر مطبوع ، يدور شعره كله حول موضوع
واحد هو الغزل ، شاعر لا يمدح ولا يهجو شأن غيره من
الشعراء ، إنه فقط يحبّ ، ويعلن عن هذا الحب في شعره ،
ديوان شعره كله ديوان حب ، والقصيدة الواحدة من قصائده
قصيدة حب كاملة . كان الغزل في شعر الشعراء - قبل عمر -
شيئاً يتخفى أو يبين داخل غيره من أغراض القصيد ، وهو

في الأكثر الأعم مدخلٌ يُفضي إلى الغرض الرئيسي من القصيدة ، أو هو حُسْنُ استهلالٍ يصل من خلاله الشاعر إلى موضوعه الجوهري مدحاً أو فخرأً أو هجاءً أو تأملاً .

وشاعرنا - الذي ولد ومات بالحجاز (من ٦٤٤ إلى ٧١٢ ميلادية) وعاش بمكة ، وكان يتردد على المدينة واليمن والشام والعراق - قد أتبع له من شبابه وجماله وفنونه وشاعريته وعراقه أصله وراثته فضلاً عن كونه وحيد أمه ، ما يشر أمامه سبيل العيش اللاهي العابت ، وهيتاً له أفانين المتعة واللهو ، ينتقل من غاية إلى غاية ، ومن التشبيب بحسناء إلى الولوج بأخرى ، ومن تلعب خطا قرشية إلى التغزل بأخرى غير قرشية ، وما أكثر ما كانت مواسم الحج ، بالنسبة له ، مواسم للحب واللذة والدوران وراء اللاتي قدمن للحج ، من بقاع الوطن للإسلامي ، يتعرض لهن ، ويشبب بهن ، ويلبس حوّلهن الأقاصيص في شعره ، ويحاورهن ، ويترقب خروجهن للطواف عرصات ، فيقمن من فؤاده موقماً يملك عليه لبتّه ، وما يلبث شعره أن يسير ويروى ويتناقله الركبان والسمّار . وبعض هؤلاء اللاتي قدمن للحج قد بلغنّ قصص عمر وأفاعيله وأشماره ، ووددن لو كان لهن حظ من شهرة ينلنها بفضل أبيات قليلة منه . إنّ التفات عمر إليهن - دون غيرهن - حظوة وتكريم ، وذكرهن في شعره مجد وأيّ مجد ، يتهن به على الصواحب والأتراب .

وفقى هذا شأنه ، لا يمكن أن يعلق فؤاده بواحدة من النساء يصدق لها الحب والعهد ، كلاً ، وإنما هو فؤاد قلق ، طائر ، متنقل ، سريع الزهد والمنوف ، دائم البحث والتنقيب والتجول ، لذلك قلن يفاجئنا أن نطالع في شعره أسماء شق المحبوبات توقف عندهن بعض الوقت ثم راصل تطوافه وتجوّاله . ليس هناك إذن اسم واحد ، لمحبة واحدة ، يكن لها حكل الحب وكل الاخلاص ، وليست هناك معالم واضحة لهذا الحشد من الحسان ، إنه دائماً يصفهن من الخارج ، القوام والوجه والمينين والقم والمشية والشعر ولا يفوته أيضاً أن يصف اللون والصوت ، هو دائماً وصف من الخارج قد تتشابه فيه المواصفات والمقاييس ، لكننا لن نجد من خلاله شخصاً حياً ، لها تفردها وتوهجها الخاص ، لها إنسانيتها المتميزة . وعمر في هذا شأنه شأن غيره من الشعراء العرب القدماء ، وإن كان ينفرد من بينهم بما أوتي من نفاذ إلى خوالج نفس المرأة ، وقدرة على تصوير عواطفها وأهوائها وزوجاتها ، وتقلبها ، وإحاطة بحركاتها وإشارات ولفقاتها وأساليب حديثها وطرق تعبيرها . مما ينمّ عنه شعره الذي وصل إلينا . هذا الشعر الذي تأثر بازدهار الفناء في عصره ، فجاء على صورة مقطوعات أكثر منه على صورة قصائد ، وفي أوزان خفيفة أو مجزوءة ، وألفاظ سهلة واضحة حلوة الجرس والرنين .

وفي شعر عمر بن أبي ربيعة ، تطالعنا ، ولأول مرة في

شعرنا العربي ، القدرة على القصّ وكتابة شعر الغزل القصصي ،
فالكثير من قصائده تجارب عاطفية في إطار من القصة ، يتخللها
غالباً حوار بين شخصيها وأبطالها ، وهو مستوى من التعبير
الشعري القصصي تفوّق به عمر كثيراً على أستاذه الأول في
هذا الفن - امرئ القيس - كما تفوّق بقدرته الخارقة على فهم
نفسية المرأة وتمثّل حالاتها المختلفة ، والقدرة على خلق الحوار
الطبيعي النابض بالحياة والجمال والطرافة .

هذا الشاعر المترف الملول ، الكثير التقلب والتنقل من
واحدة إلى أخرى ، هو أيضاً شاعرٌ معجب بنفسه كل
الإعجاب ، شاعر نرجسيّ يتلى شعره بذكر تهافت الحسان
عليه ، وإعجابهن به وبشعره ، ومن هنا نجد في قصائده لونا
من التشبيب بنفسه ، والحديث عن طلب النساء له وسعيهن
في إثمه :

ثم اسبطرت تشد في أثري

تسأل أهل الطواف عن عمر

إنه المطلوب وليس الطالب ، وهو المطارد وليس المطارد ،
وهو من تتعرض له النسوة في الطريق بالغمز والإشارة ، وهو
من يصفنه بالقمر ، ويهين له سبل اللقائهم في الخلوات ، ويدبرن
بينهن وبينه رُسلاً يحملن إليه رسائل الوجد والشوق والهيام :

هل من رسول يكبي حوائجنا

بحاجة تشتهي إلى عمر ؟

وهنّ في قصائده يتحدثن عنه حديث من تسمن الحب
وبرّح بين الهيام ، وما أسعدهن به حين يطلع عليهن بمتطياً
جواده الأغرّ وهن منغمسات في الحديث عنه والتلذذ بذكره :

قلن : يسترضينها : مُنِثْنُهَا
لو ألقانا اليومَ في مرٍّ 'عمر' !

بينما يذكرّني أبصرّني
دون قيد الميل ، يعدو بي الأغر

قالت الكبرى : أتمرفن الفق ؟
قالت الوسطى : نعم ، هذا عمر

قالت الصغرى وقد تيمّنتها :
قد عرفناه ، وهل يخفى القمر !

فأيّ زهو بالنفس وأي افتتان بالذات ؟

* * *

والقصيدة التي نطالعها الآن من شعر عمر بن أبي ربيعة
تحمل كل خصائص شعره وسمات شاعريته ، فضلاً عن أنها
أطول قصائده تنقّساً وأشهرها بين الرواة ودارمي الأدب ،
ومتذوق شعرنا العربي .

القصيدة تدور حول واحدة من محبوباته هي « نعم » ،
ويستهلها بالحديث عن شمل غير مكتمل وحبلّ غير موصول ،

وحنين إلى صاحبتة هذه التي حالت الحوائل بينه وبينها ، وفي مقدمة هذه الحوائل أقاربها الذين يقطعون الطريق عليه ويتنمرون له . ثم يصل بنسا إلى جوهر القصيدة حين يصف - في مهارة واقتدار - ليلة « ذي دوران » حين أخذ يترقب نوم المحيطين بنغم ، حتى إذا هجموا وأطفئت المصابيح ونام السمار فاجأها بالزيارة ، ثم هو يصف وقع المفاجأة عليها ، وما دار بينهما من حوار وهي متوجسة خائفة من الفضيحة لو أحس بها القوم - وينتهي الحوار بقولها لعمر :

فأنت - أبا الخطاب - غير مدافع
عليّ أمير ، ما مكثت ، مؤمّر

ويبيت معها عمر ، ويلذّ له الوصال ، ويا له من ملهى ومجلس لم يكدره مكدر ، وتقضي الساعات وهما في نشوة اللقاء ، حتى يروعها صوت المنادي يؤذّن للرحيل وقد أوشك الليل على الانقضاء . وهنا تبلغ القصة قمتها وتستحكم عقدها ، لقد استيقظ القوم وتنهبوا ، فكيف لعمر أن يفادر الحي دون أن يحسوا به ، وتدبّر له صاحبتة المخرج ، تقضي لأختيها بالأمر لعلها تعينان عليه ، وتعطيه الصغرى رداءها فيرتديه ، ويمشي بينهما حتى يفادر ، فلا السر يفشو ولا الفضيحة تقع ، ولا ينسى وهو يحتتم قصيدته بمد أن نجا بتدبير الأختين ، لا ينسى أن يغبط أهل صاحبتة برائحتها الطيبة ومذاق فمها المسكر ..

وكأنه يريد أن يقول إن أثر هذه الرائحة المعطرة وهذه الأعطاف الناعمة ما يزال عالماً بذاكرته لم يفارقه بعد .

يبقى بعد هذا أن نشير إلى الصنعة الشعرية المتقنة التي تنبض بها هذه اللوحة الشعرية الفاتنة من آثار عمر بن أبي ربيعة وإلى القدرة الفذة على التصوير والتجسيد وتوزيع الألوان والظلال ، خاصة وهو يرسم الجبال النفسي لشخصه وأبطاله ، وإلى الإيقاع الموسيقي المواكب لحركة النفس هدوءاً واندفاعاً ، قلقاً واطمئناناً ، وإلى التفنن في تصوير الإطار الطبيعي للمشهد وقد غاب القمر وهجج السمار وواتت الفرصة ..

وقصيدة « نعم » بعد هذا كله شاهد صدق على مغامرة شاعر فائق ، معجب بنفسه ، مفتون بذاته ، وبحظوته لدى النساء ، واقتداره على الوصول إليهن ، شاعر استطاع أن يخط في مسيرة الشعر العربي عامة ، وشعر الغزل والحب خاصة ، أروعاً فريداً غير متكرر ، تنتمي جذوره البعيدة إلى امرئ القيس وتنتهي فروعه القريبة إلى نزار قباني .

يقول عمر بن أبي ربيعة :

« نَعَمْ »

استعداد وشوق :

أمن آل 'نعم' أذنت غداً فبكر'
غداة غدي ، أم رائح' فمهجّر^(١)
لحاجة نفس لم تقل في جوابها
فتبلغ عذراً والمقالة 'تعذر'
تهم إلى 'نعم' ، فلا الشمل جامع'
ولا الحبل موصول' ، ولا القلب مقصر
ولا قرب 'نعم' إن دنت لك نافع
ولا نأيا يسلي ، ولا أنت تصبر'
وأخرى أنت من دون 'نعم' ، ومثلها
نهى ذو النهى لو ترعوي أو تفكر^(٢)
إذا زرت 'نعماً' ، لم يزل ذو قرابة
لها ، حكماً لا قيتة ، يتنمّر' .

(١) غداً فبكر' : أي سائر في الصباح الباكر قبل طلوع الشمس .
الرائح : السائر في الرواح وهو وقت العشي . المهجّر : السائر في الهجرة
وهي الحر الشديد .

(٢) النهى : العقل . ترعوي : ترجع عن الضلال .

عزیز علیہ أن ألمٌ بینہما
 یسرُّ لی الشعناء، والبغضُ مطہرٌ^(١)
 أکنی لہما بالسلام، فإنه
 یشرُّ لئلا می بہا ویُنکرُ^(٢)
 بآیة ما قالت غداةً لقیئہا
 «مدفع أکنان» : أهذا المشرُّ ؟^(٣)
 أشارت بمیدراہا ، وقالت لأختہا :
 أهذا المغیریُّ الذی کان یذکرُ ؟^(٤)
 أهذا الذی أطريتِ نعمًا ، فلم أکن
 وعیشیک ، أنساء إلی یوم أقبرُ^(٥)
 فقالت : نعم ، لا شک غیر لونه
 'سری اللیل یحیی نصہ ، والتهجرُ'^(٦)

-
- (١) الشعناء : الکراہیۃ والبغضاء .
 (٢) أکنی : أي أحل رسالتی . یشر : یذاع .
 (٣) «مدفع أکنان» : اسم موضع .
 (٤) المدری : حدیة یحک بہا الرأس . المغیری : أي عمر ، نسبة
 إلی المغیرۃ جد أبیہ .
 (٥) أطريتِ نعمًا : أحملت وصفاً .
 (٦) یحیی نصہ : یردہ وانقضاءہ . التهجر : السیر فی الماہجرۃ
 وہی الحر الشدید .

لئن كان إياه ، لقد حال بعدنا
عن العهد ، والإنسان قد يتغير^(١)

صورة وصفية للشاعر:

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت
فيضحي ، وأما بالعشي فيخصر^(٢)
أخا سفره جواب أرض ، تقادفت
به فلوات^(٣) ، فهو أشعث أغبر^(٤)
قليل على ظهر المطية ظلّه
سوى ما نفى عنه الرداء المخبّر^(٥)

وصورة لحال الحبيبة :

وأعجبها من عيشها ظلّ غرفة
وريتان ملتفّ الحدايق أخضر

(١) حال : تغير .

(٢) عارضت : أي قابلت وواجهت . يضحى : يتمرّض للشمس .

يخصر : يشتد به البرد .

(٣) الفلوات ، جمع فلاة وهي الصحراء .

(٤) الرداء المخبّر ، المزين والمطرّز .

ووالِ كفاها كل شيء مُهْشِها
فليست لشيء آخرَ الليلِ تسهر^(١)

وصف المغامرة الليلية :

وليلة « ذي دوران » جشمتني السرى
وقد يحشم الهولَ الحبُّ المفرّر^(٢)
فبتُ رقيباً للرفاق على شفا
أحاذر منهم من يطوف وأنظر^(٣)
إليهم ، متى يستمكن النوم منهمو
ولي مجلسٌ لولا اللبانة أوعر^(٤)
وباتت قلوصي بالعراوِ ورَحَلُها
لطارقِ ليلٍ ، أو لمن جاء ، مُعمور^(٥)
وبتُ أناجي النفس : أين خباؤها ؟
وكيف لما آتني من الأمر مصدر ؟

(١) الوالي : الزوج أو القيم . كفاها كل شيء : أي كفل لها كل احتياجاتها ورغائبها .

(٢) « ذي دوران » : اسم مريض . جشمتني : أي كلفتني . المفرّر : الذي يمرّض نفسه للهلاك .

(٣) على شفا : على حذر وتربص .

(٤) لولا اللبانة : لولا الحاجة والموى .

(٥) قلوصي : ناقتي . معمور : أي ظاهر واضح .

فدلت عليها القلب ربنا عرفتها
 لها ، وهوى النفس الذي كاد يظهر^(١)
 فلما فقدت الصوت منهم ، وأطفأت
 مصابيح^٢ شئت في العشاء وأنور^٣
 وغاب قير^٤ كنت أرجو غيوبة
 وروح رعيان^٥ ونوم^٦ سر^٧
 ونفضت^٨ عني التوم ، أقبلت مشية الـ
 حجاب^٩ وركني خشية القوم أزور^(١٠)
 فحييت^{١١} إذ فاجأتها ، فتولت
 وكادت بخفوض التحية تجهز^(١٢)
 وقالت وعضت باللسان : فضحتني !
 وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسر^{١٣}
 أريتك^{١٤} ، إذ هئنا عليك ، ألم تخف ؟
 وقيت^{١٥} ، وحولي من عدوك حضر^(١٦)

(١) الربنا : الرائحة الذكية .

(٢) مشية الحجاب : أي كاتشي الحية ، وركني أزور : أي وجسمي
 مائل منعطف خشية أن يراني أحد .

(٣) تولت : اشتد بها الوجد .

(٤) أريتك : أي قل لى وأخبرني ، أصلها أرايتك . 'حضر : أي
 حاضرون .

فواش ما أدري أتصجيل حاجة
سرت بك ، أم قد نام من كنت تحذر ؟

فقلت لها : بل قادي الشوق والهوى
إليك ، وما عين من الناس تنظر
فقات وقد لانت وأفرخ روعها :
كلاك بحفظ ربك المتكبر^(١)

فأنت ، أبا الخطاب ، غير مدافع
علي أمير ، ما مكنت ، مؤتمر^(٢)

فبت قرير العين ، أعطيت حاجتي
أقبل فاما في الخلاء فأكثر

فيالك من ليل تقاصر طوك
وما كان لي قبل ذلك يقصر

ويا لك من ملهى هناك ، ومجلس
لنا ، لم يكدره علينا مكدر

(١) أفرخ روعها : هدأت نفسها . كلاك : رعاك وحفظك .

(٢) أبو الخطاب : كنية عمر بن أبي ربيعة . غير مدافع : غير منزوع .
مؤمر : أي لك الأمر والسيادة علي .

يَجْ ذكي المسك منها مفلج^(١)
 رقيق الحواشي ذو غروب مؤشر^(٢)
 تراه إذا تفتّر عنه ، كانت
 حصّى برّدي أو أقحوان^(٣) منور^(٤)
 وترنو بعينيهما إليّ ، كما رنا
 إلى ربربي وسط الحيلة جؤذر^(٥)
 فلما تقضى الليل إلا أقلّه
 وكادت قوالي نجمه تتغور^(٦)
 أشارت بأنّ الحيّ قد حان منهمو
 هبوب^(٧) ، ولكن موعدك لك وعزور^(٨)
 فما راعني إلا مناد : « ترحلوا »
 وقد لاح مفتوق^(٩) من الصبح أشقر^(١٠)

(١) يَجْ ذكي المسك ، أي يفلج بالرائحة الطيبة . مفلج : أي ثغر
 متباعد الأسنان ، وكانت العرب تعد هذا من جمال المرأة . ذو غروب :
 أي ممتلئ بالرحيق والرضاب . مؤشر : أي أسنانه مخترجة خلقة أو صنعة .
 (٢) تفتّر عنه : تبتسم .

(٣) الربرب : القطيع من بقرة الوحش . الجؤذر : ولد البقرة الوحشية
 كانت العرب تشبه النساء به لجمال عينيّه .

(٤) قوالي نجمه : أي نجومه المتبقية . تتغور : تخيب .

(٥) عزور : اسم جبل بين مكة والمدينة .

(٦) مفتوق : أي منشق ، والمقصود نور الصباح .

فلما رأت من قد قلبه منهم
وأيقاظهم ، قالت : أشرُ كيف تأمرُ !
فقلت : أباديهم ، فلما أفوئهم
ولما ينال السيف ثأراً فيثأرُ^(١)

تدبير الخلاص :

فقلت : أتحقيقاً لما قال كاشحُ
علينا ، وتصديقاً لما كان يُؤثرُ^(٢) ؟
فإن كان ما لا بدّ منه ، فغيره
من الأمر أدنى للخفاء وأسرُّ
أقصُّ على أخفى بدءَ حديثنا
وما لي من أن تعملنا متأخرُ
لعلّها أن تطلبنا لك مخرجاً
وأن ترحبنا صدرأ بما كنتُ أحصرُ^(٣)
فقامت كئيباً ليس في وجهها دمٌ
من الحزن تُذري عبرةً تتحدّرُ^(٤)

(١) أباديهم : أبادر وأتصدى لهم .

(٢) الكاشح : العدو المبغض . يؤر : يروى ويقال .

(٣) أحصر : أضيق به .

(٤) تُذري عبرة : تسكب دمعاً .

فقامت إليهما 'حرثان' عليها
 كيساءان من خزّ: دمعس' وأخضر'
 فقالت لأختيها : « أعينا على فتى'
 أتى زائراً ، والأمر' للأمر' يقدر ،
 فأقبلتا ، فارتاعتا ، ثم قالتا :
 أفلتي عليكِ اللؤم' ، فالخطب' أيسر
 فقالت لها الصغرى : سأعطيه مطرفي
 ودرعي وهذا البرد' إن كان يحذر^(١)
 يقوم فيمشي بيننا 'متنكراً'
 فلا سرّنا يفشو ولا هو يظهر
 فكان يجنّني دونَ من كنت أتقي
 ثلاث شخوص : كاعبان' ومُعصر'^(٢)
 فلما أجزنا ساحة الحي قلن لي :
 ألم تتقِ الأعداء والليل' مقرر؟

(١) المطرف : رداء من خزّ . الدرع : قيص المرأة . البرد :
 ثوب مخطط .

(٢) مجني : ترسي . الكاعبان : مثني الكاعب ، وهي الفتاة في أول
 البلوغ . المعصر : المرأة الناضجة .

وقلن : أهذا دأبك الدهر سادراً
أما تستحي أم ترعوي أم تفكر^(١) ؟
إذا جئت فامنح طرف عينيك غيراً
لكي يحسبوا أن الهوى حيث تنظر^(٢)

التفاته وتذكر :

فأخبر عهدي لي بها حين أعرضت
ولاح لها خد نقي وبحجر
سوى أنني قد قلت يا نعم ، قولة
لها ، والعناق الأرحبيات تزجر^(٣)
هنيئاً لأهل العامرية نشرها الـ
لذيد وريتها التي أتذكر^(٤)

-
- (١) دأبك : عادتك . سادراً : منصرفاً إلى الغواية غير مبال .
(٢) امنح طرف عينيك غيراً : أي انظر إلى سواها وغيرها .
(٣) العناق الأرحبيات : النيات الكريمة . تزجر : تساق وتدفع .
(٤) اللذر : ربح فم المرأة . الريتا : الرائحة الذكية .

[المؤسسة]

الجنون ليلي (قيس بن الملوّح)

لا يُذكر الحبُّ في شعرنا العربي القديم إلا ويذكر معه
جنون ليلي : هذا الاسمُ الأسطوري ، الذي صارَ عَلمًا على نوع
من الحب هو الحب العذري . وصارَ مثلاً للمشق الصادق الذي
صرع صاحبه ، وكان بذلك موضعَ أحاديث معاصريه ومن جاء
بعدهم حتى يومنا هذا .

ويتفق المؤرخون جميعاً على أن الجنون عاش في عصر
الدولة الأموية ، واستمرت حياته حتى عام سبعين من الهجرة ،
وأن اسمه الكامل هو قيس بن الملوّح من بني عامر بن صعصعة ،
وأن ليلي التي أحبها وهام بها وقضى بسبب حبها هي ليلي بنت
مهدي بن سعد بن كعب بن ربيعة .. وأن كليها نشأ في بيت
ذي ثراء وافر وخير كثير ..

— ولكن ما هي — أولاً — حكاية هذا الحب العذري ؟
في رحاب الصحراء العربية وتحت خيامها ، وفي ظلال

كشباتها ومنعطفات أوديتها ، غسا وترعرع حباً الفروسية
الأصيل .. ولقد كانت البيئة العربية مهداً لحب الفروسية
منذ الجاهلية ، فالبادية أيقظت في وجدان الشاعر العربي
الحديث عن الحب الذي ينشر على الحياة الرتيبة فيها جواً من
المرح والسرور وهو حب أهل البادية الذي يملأ عليهم فراغ
الحياة من حولهم ويبحث فيهم من نبل الشعور ما به يعيشون
على ذكرى هذه العاطفة في النفس ، ويبكون آثارها في أطلال
ديار الحبيب .

وحياة البادية بما كانت تدفع إليه من شطفٍ وجهد ، وبما
كانت تستلزمه من تعاون قبلي ، ساعدت على تكوين أخلاق
وتقاليد تمكنت من روح العربي وسرت في نفسه وهي أخلاق
الفروسية وتقاليدها : من البطولة في الحرب ، وحماية الجار ،
والوفاء بالعهد .

فالشاعر العربي منذ الجاهلية فارس من قوم فرسان ،
والفارس يكتمل فيه جانب البأس والشدة في مواطن الهول
يجانب الرقة والدمائة خضوعاً لسلطان العاطفة - ولهذا ،
كان الشاعر العربي لا يبكي في شعره أمام أخطر الأحوال ،
ويتعاشى أن يمر بباله هذا البكاء خوفاً من أن تضيق مكانته في
قومه ، ولكنه يبكي في سرٍ وطواعية لإرضاء لعاطفته
واستجابة لها ، بل إنه يظهر أمام حبيبته في صورة الخاضع
الذليل لسلطان حبه ، وإن كان الفارس القوي الذي يحميها
ويخاطر في سبيلها .

ولم يلبث عامل البيئة والقبيلة أن تضافر مع عوامل أخرى كثيرة في خلق نوع جديد من الحب في حياة العربي ، يتجاوز كثيراً حب الفروسية وإن كان يتفق معه في صدق العاطفة ، ألا وهو الحب العذري ، وفيه يمزج صدق العاطفة بصدق العقيدة .

نشأ هذا النوع الجديد من الحب بعد ظهور الإسلام ، واتضحت سماته في عهد الأمويين ، بعد أن تغير الوضع القديم للجزيرة العربية في ذلك العهد ، فانتقلت عاصمة الدولة الجديدة إلى دمشق ، وقوي النشاط السياسي في العراق ، وبُعد الحجاز عن المشاركة في شئون الدولة ، وبخاصة بعد فشل ثورة عبد الله ابن الزبير . واتجه شعراء الحجاز اتجاهاً مختلفين : الأول لإغراق في اللهو ، في حياة مرحلة غنية ، بما أفاء عليهم الإسلام من مغنم الفتوح ، وخير من يمثل هذا الاتجاه عمر بن أبي ربيعة وأضرابه ، وأكثرهم من سكان المدن .

أما الاتجاه الثاني فكان إلى التعبير عن الغزل العفّ ، ويفلب على سكان بادية الحجاز ، لتمكّن التقاليد العربية منهم ، وقوة سلطان المحافظة الخلقية بينهم ، والمحافظة تغلب دائماً على سكان القرى والبوادي - ويضعف سلطانها في المدن والعواصم . لذلك نما الغزل العذري في أول نشأته في بادية الحجاز ونجد ، وكان بمثابة ردّ فعلٍ للغزل اللاهي في المدن ، فولع شعراء البادية بتصوير عاطفتهم في ثوب جديد عفّ ، يرضى

عنه الخلق ، ويرقق بين مطالب الجسم والروح معاً .

* * *

ها هو ذا قيس بن الملوّح ، في مقتبل شبابه ، الفقى
الغيور ، الممتد بنفسه ، ينشد حباً خالصاً له ، حتى إذا علق
قلبه بليلى ، وأقاه الحب الذي كان يتطلع إليه ، حباً جارفاً
قوي عارماً ، يصفه هو بقوله :

نهارى نهار الناس ، حتى إذا بدا
ليَ الليلُ هزتي إليك المضاجعُ
أقضي نهارى بالحديث ، وبالمنى
ويجمعني والهم بالليل جامعُ
لقد ثبتت في القلب منك حبة

كما ثبتت في الراحتين الأصابع^(١)

ويغلب قيساً شعوره العنيف بحب ليلى ، فيُعبّر عن حبه
لها وهيامه بها في شعرٍ حلوٍ متدفق ، ولسوء حظه وحظ
ليلى ، أن التقاليد العربية الجاهلية - التي لم يكن قضى عليها
الإسلام - كانت تحرم على من يشبب بفنائة أن يتزوج منها ،
لأن التشبيب والغزل الصريح مظنة صلة بها قبل الزواج ،
ومبعث ريبة في أن الزواج لم يتم بينها إلا سراً للعار .

(١) من الطريف أن هذه الأبيات نفسها ينسبها الرواة إلى مجنون آخر
بالحب هو قيس ابنى ! ونجدها في قصيدته داخل هذا الكتاب .

وتحرمُ ليلى على قيس وتُجبر على الزواج من غيره ، ولا
يحتمل قيس وقع الكارثة ، فيهم على وجهه ، ويختبل عقله ،
وتدركه المنية وهو على هذه الحال .. شارداً ذاهل القلب فيما
يشبه الجنون .

* * *

وقيس في شعره عن ليلى - وما أكثره - مؤمنٌ بأنه
ضحية قدر لا سبيل إلى الإفلات منه ، وأنه في معاناته لهذا
الحب العنيف لا يتطلع إلى مشوية كما أن الحب في إدراكه له
صفة الخلود . فهو باقٍ بعد الموت وإلى يوم الحشر ، ويصاحب
الحب العذري في الدار الآخرة ، ولذا فهو يتمنى الحشر لأنه
السبيل للقاء من يحب .

ومن بين ديوان « مجنون ليلى » تستوقفنا قصيدته المسماة
« المؤنسة » ليس لأنها كما تقول مصادر شعره أشهر قصائده
فحسب ، ولا لأنها أطول قصيدة أنشدها وواظب عليها ولا
لأنها - كما يقولون - كانت أقرب قصائده إلى قلبه ، لا يخلو
بنفسه إلا وأنشدها ، ومن هنا كانت تسميتها بالمؤنسة لكثرة
ما آمنت المجنون بقرديده لها وإنشاده أبياتها مجتمعة أو
متفرقة ، ليس لكل هذه الأسباب تتخير قصيدة المؤنسة من
ديوان المجنون ، ولكن لأنها نموذج رفيع للشعر العذري ،
الذي عبّر لدى أعلامه الكبار : جميل بثينة وكثير عزة
ونصيب وقيس بن ذريح - الذي يعرف باسم مجنون لبنى -

وابن الدائمة وأبي صخر الهذلي وعروة بن حزام ، عثر عن عاطفتهم المشبوبة التي لا تشتطع إلى 'متع حسية' ، فقد كانوا يسمون بها 'سمواً تجلى في اعتزازهم بها والتضحية في سبيل الإبقاء عليها بما يستطيعون بذله من جهد وآلام ومعاناة حرمان بدافع الزهد في المحرمات وتقوى الله . لقد دفعهم المحرمات إلى التسامي ، ولا يتاح مثل هذا التسامي إلا للصفوة التي تؤمن بقيم روحية وخلقية تبلور بها عاطفتها ، فالحب العذري حباً عفاً لأنه حب حرّم المتعة الجسدية ، وهو عاطفة صادقة لأنه يدوم ويستمر ويبقى على الرغم من الحرمان .. ثم هو بعد ذلك حب يتسامى فيه صاحبه ، لأنه يحرص على القيم الإنسانية والمثل العليا ، ولا يقف عند مجرد الحسرة والندم على الحرمان ، من متع الحب ووصال الحبيب .

في ضوء هذه السطور نستطيع أن نتأمل قصيدة المؤنسة ، رائعة مجنون ليل ، باعتبارها نموذجاً صادق التعبير والتصوير لحقيقة هذا الحب العذري ، ولعمق مكابدة العاشق العذري وتساميه بعاطفته المشبوبة وشعوره الصادق ووجدّه المبهج ، كما نستطيع أن نطالع من خلال أبياتها نسيجاً شعرياً محكاً ، غاية في الرقّة والمذوبة ، تفره روح بدوية أصيلة تكسبه صدقاً ورسانة ، وبُعداً عن التكلف وخلوّاً من الصنعة ، نسيجاً شعرياً يزخر بصدق العاطفة وروعة التصوير وحرارة الوجد والهيام .. لا يملك قارئه إلا أن يتعاطف معه ويتأثر بما يحمله من لوعة وحنين وشجن وأسى .

استهدل وتذكر :

تذكرتُ ليلي ، والسنين الخواليها
وأيام لا تخشى على اللهو ناهيا
ويوم كظلّ الرمح ، قصّرتُ ظلّه
بليلي ، فلهاّني ، وما كنت ناسيا
« بتمدين » لاحتُ نارُ ليلي ، وصُحبتني
« بذاتِ الفضى » « زجى المطي » التواجيا (١)
فقال بصير القوم ألحت كوكبا
بدا في سواد الليل فرداً يائيا
فقلت له : بل نار ليلي توقّدت
« بعليا » ، تسمى ضوءها ، فبدا ليا
فليت ركاب القوم لم تقطع الفضى
وليت « الفضى » ماضى الركاب لباليا
فيا ليل كم من حاجة لي مهمة
إذا جتكم بالليل لم أدر ما هيا
خليلي إن لا تبكياني أتمسّ
خيلا إذا أنزفتُ دمي بكى ليا

(١) ثمين وذات الفضى : اسمان لموضعين . المطي : التواجي : جمع
تاجية ، وهي الذوق السريعة تنبهر بين ركبتها .

فما أشرف الأيفاع إلا صباية^(١)
ولا أنشد الأشعار إلا قداويا^(٢)
وقد يجمعُ الله الشيتين بعدما
يظنَّان كل الظنَّ أن لا تلاقيا^(٣)

سرّ الماساة :

لحى الله أقواماً يقولون إننا
وجدنا طوالَ الدهر للحبِّ شافيا^(٤)
خليليّ ، لا والله ، لا أملكُ الذي
قضى الله في ليلي ، ولا ما قضى ليا
قضاما لغيري ، وابتلاني بحبها
فهلّا بشيء غير ليلي ابتلاني
وخبرْتُني أن « قياء » منزلٌ
لليلى إذا ما السيف ألقى المراسيا^(٥)

(١) الأيفاع : جمع يقع ويفاع ؛ كلُّ ما ارتفع من الأرض (التلال المشرقة) .

(٢) الشيتان : اللذان ابتعد كل منهما عن صاحبه وتفرق بها الشمل .

(٣) لحى الله : قبح الله ولمن . طوال الدهر : طول الدهر .

(٤) قياء : اسم موضع .

فهذي شهور الصيف عبثا قد انقضت
 فما للنوى ترمي بلبلى المراميا ^(١)
 فيا ربّ سوّ الحب بيني وبينها
 يكون كفافاً لا عليّ ولا ليا
 فما طلع النجم الذي يبتدى به
 ولا الصبح إلا هيجا ذكرها ليا
 ولا سرّت ميلا من دمشق ، ولا بدا
 « سبيل » لأهل الشام إلا بدا ليا ^(٢)
 ولا « مميت » عندي لها من سمية
 من الناس إلا بلّ دمي ردائيا
 ولا هبت الريح الجنوب لأرضها
 من الليل إلا بت للريح حانيا
 فإن تمنعوا ليلى وتحموا بلادها
 عليّ ، فلن تحموا عليّ القوافيا ^(٣)

(١) النوى : البعاد .

(٢) سبيل : نجم بيني ، طلوعه على بلاد العرب في أواخر القيظ .

(٣) تحموا بلادها عليّ : تمنعوا بلادها عليّ . فلن تحموا عليّ القوافيا :
 لن تستطيعوا منعي من التفتي بها في شعري .

شهادة عند الله :

فأشهدُ عند الله أني أحبها
فهذا لها عندي ، فما عندها ليا
قضى الله بالمعروف منها لغيرنا
وبالشوق مني والغرام قضى ليا
وإن الذي أملت يا أم مالك
أشاب فويدي واستهام فؤاديا (١)
أعدُّ الليالي ليلة بعد ليلة
وقد عشتُ دهرًا لا أعد الليالي
وأخرج من بين البيوت لعلني
أحدث عنك النفس بالليل خاليا
أراني إذا صليت يمت نحوها
بوجهي ، وإن كان المصلي ورائيا
وما بي إشراك ولكن حبتها
وعظَّم الجوى ، أعيا الطبيب المداويا (٢)

(١) أم مالك : كنية « ليلي » . فويدي : الفريد تصغير الفرد وهو
معظم شعر الرأس .

(٢) عظم الجوى : شدة الوجد والهيام .

أعلى درجات الحب :

أحب من الأسماء ما وافق اسمها
أو أشبهه ، أو كان منه مدانياً ^(١)
خليلياً « ليلي » أكبر « الحاج » والمنى
فمن لي بليلى ، أو فمن ذا لها بيا ^(٢)
لعمري لقد أبكيتني يا حمامة الـ
حقيق وأبكيت العيون البواكيا ^(٣)
خليلياً ما أرجو من العيش ، بعدما
أرى حاجتي تشرى ولا تشترى ليا ^(٤)
ونجزم ليلي ثم تنزع من أننى
سلوت ، ولا يخفى على الناس ما بيا
فلم أرَ مثلينا خليلي صابية
أشد على رغم الأعادي تصافيا
خليلان لا نرجو اللقاء ، ولا نرى
خليلين إلا يرجوان التلاقيا

(١) مدانياً : متقارباً ومشابهاً .

(٢) الحاج : جمع حاجبة ، أي المآرب والغايات .

(٣) الحقيق : اسم موضع .

(٤) تشرى : تبساع . أرى حاجتي : أي مآربي من الحياة وهو

« ليلي » .

وإني لأستحييك أن تعرض المنى
 بوصلك أو أن تعرضني في المنى ليا
 يقول أئاس علّ مجنون عامر
 يريد سلوا ، قلت أنتى لما بيا ^(١)
 إذا ما استطال الدهر يا أم مالك
 فشأن المنايا القاضيات وشانها ^(٢)
 إذا اكتحلت عيني بيمينك لم تزل
 بخير وجلت غمرة عن فؤادها ^(٣)
 فأنت التي إن شئت أشقيت عيشي
 وأنت التي إن شئت أشقيت باليا
 وأنت التي ما من صديق ولا عدا
 يرى نضوا ما أبقيت إلا رثى ليا ^(٤)
 أمضوبة ليلي على أن أزورها
 ومتخذة ذنبا لها أن ترانها

(١) أنسى : أي كيف السبيل إلى ذلك !

(٢) وشانها : وشائي ، سبّلت المهمة لضرورة القافية .

(٣) جلت غمرة : أزاحت لها وأسى .

(٤) النضو : الإنسان المزول والثوب البالي الممزق [يقصد بالنضو
 نفسه المحطمة الممزقة] .

إذا سرتُ في الأرض الفضاء رأيتني
 أصانعُ رَحلي أن يميل خيالها ^(١)
 ميمناً إذا كانت ميمناً ، وإن تكن
 شمالاً ينازعني الهوى عن شمالها
 وإني لأستغشي وما بي نَفْسَة
 لعل خيالاً منك يلقي خيالها ^(٢)
 هي السحر إلا أن للسحر رُقِيَة
 وإني لا أُلقي لها الدهر راقياً ^(٣)
 إذا نحنُ أدلجنا وأنتِ أماننا
 كَفَى لمطايانا بذكرائك هادياً ^(٤)
 ذكّت نار شوقي في فؤادي فأصبحت
 لها وهجٌ مستضرمٌ في فؤادها ^(٥)

-
- (١) الرجل : الركاب . أصانع رحلي : أجعل السائرين ممي يتجهون
 الى حيث ليلى .
 (٢) أستغشي : استحضر النوم . نَفْسَة : نعاس ووجبة شديدة في النوم .
 (٣) رُقِيَة : خرز ووقاية أو ما يستعان به على السحر من قوى غيبية
 متوهمة . لا أُلقي : لا أجِد . لا أُلقي لها الدهر راقياً : أي لا أجِد
 لنفسي شفاءً من حبها .
 (٤) أدلجنا : سرنا في الليل المظلم .
 (٥) ذكّت : اشتعلت .

ألا أيها الركبُ اليبانون عرجوا
 علينا فقد أمسى هوانا يمانيا ^(١)
 أسألكم هل سال «نعمان» بعدنا
 وحُبَّ إلينا بطنُ نعمان واديا ^(٢)
 ألا يا حامي بطنِ نعمان هجمتا
 عليّ الهوى لنا تغنيتما ليا
 وأبكيتاني وسط صحي ، ولم أكن
 أبالي دموع العين لو كنتُ خاليا
 ويا أيها القمرِيتان تجاوزتَا
 بلحنيكما ثم اسجعا عللانيا ^(٣)
 فإن أنتم استطربتما ، أو أردتما
 لحاقاً بأطلال «الفضى» فاتبعانيا ^(٤)
 ألا ليت شعري ما لليلي وما ليا
 وما للصبأ بعد شيب علانيا

(١) الركب اليبانون : التجهون وجهة اليمن ، أي الجنوب .
 (٢) نعمان : اسم موضع .
 (٣) القمريتان : الهامتان المزدان . اسجعا : غردا . عللانيا :
 أشغياتي من وجددي وحيي المبرح .
 (٤) أطلال الفضى : أي الآثار المتبقية من المكان الذي كان يضمه
 ويحمله مع ليلي ، والذي شهد ذكرايتها معاً .

ألا أيها الواصي بليلى ، ألا ترى
إلى من تشبها أو بمن جثت وأشيأ
لئن ظمن الأحبابُ يا أم مالك
فما ظمن الحب الذي في فؤاديا (١)

فداء إلى ليلي :

معدّتي ، لولاك ما كنت هائماً
أبيتُ سخين العينِ حرّان باكياً (٢)
معدّتي ، قد طال وجدي وشفّتي
هواك ، فيا للناس قلّ عزائيا (٣)
وقالتي وارحمتا لشبابه
فقلت : أجل ، وارحمتا لشبابيا
وددتُ على طيب الحياة لو أنه
يزادُ لليلي عمرها من حياتيا
ألا يا حمامات العراق أعنّتي
على شجني ، وابكين مثل بكائيا

(١) ظمن : رحل .

(٢) سخين العين : عينه تبكي بشدة وحرقة . حرّان : هفان .

(٣) شفّتي : أضنّاني وأسقمني .

يقولون ليلى بالمراقِ مريضة
 فيا ليتني كنت الطبيبّ المداويا
 تمرّ الليالي والشهور ، ولا أرى
 غرامي لها يزاد إلا تماديا (١)

دعاء أخير :

فيا ربّ إذ صيرت ليلى هي المني
 فزنتي بعينها كما زنتها ليا (٢)
 وإلا فبفضها إليّ وأهلها
 فلاني بليلى قد لقيت الدواويا (٣)
 على مثل ليلى يقتل المرء نفسه
 وإن كنت من ليلى على اليأس طاويا (٤)
 خليلي إن ضنثوا بليلى ، فقرّباً
 ليّ النعش والأكفان ، واستغفرا ليا (٥) .

-
- (١) تمادياً : بلوغاً إلى مداه وإمماناً في الأمر . ويرى : غرامي بها بدلاً من غرامي لها .
 (٢) فزنتي بعينها : جتلي بعينها .
 (٣) الدواوي : المصائب المهلكة .
 (٤) طاوياً : أي غفياً أمري وحقيقة ما أكابده في نفسي .
 (٥) ضنثوا بليلى : منعوها عليّ وحرموني منها . قرّباً ليّ النعش والأكفان : هيئوها وجوزوها .

(بشينة)

لجميل بن معمر

وإني لأرضى من بشينة بالذي
لو أبصره الواسي لقرت بلباسه
بلا ، وبألا أستطيع ، وبالمى
وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة المجلى ، وبالحول تنقضي
أواخره ، لا نلتقي ، وأوائله
كانت هذه أول أبيات أستمع إليها من شعر جميل ،
وساعتها تمثيت لو أن بين يدي ديوان شعره كله ، أطالعه
وأثامله ، وأتوقف مع قصة هذا الفتى العذري - نسبة إلى
قبيلة عذرة - الذي أصبح علماً على هذا اللون من الحب العف ،
يسمو بجرمانه وعفته وشفافيته ، ويرتفع عن شهوات النفس
ومطالب الجسد ، يمتلىء الوجدان بالمعنى الروحي ..

في شمر جميل بثينة ، تتعرف على أرقى نماذج الحب العذري
وأصفاها وأصدقها وتراً وأشدها حرارة . هو شعر يمتلئ
بشكاوي النفس وما يلاقيه الحب المقيم من تبايرج الوجد ،
وقسوة البعد ، ومرارة الحرمان . ولكنه مع ذلك ، صادق
اللوعة ، عف الضمير واللسان ، رصين التعبير ، غني القلب
موفور الحس والشعور . ثم هو دائماً شاعر عاشق يرضى من
محبوبته بالقليل ، بل بالأقل من القليل :

أيا ربح الشمال ، أما تريني
أهم ، وأني بأدي النحول
هي لي نسمة من ربح بثن
ومنتى بالهبوب على جميل
وقولي : يا بثينة حسب نفسي
قليلك ، أو أقل من القليل

وهو شاعر دائم الحديث عن بخل حبيبته ، لكنه حديث
الراضي المستلم ، لا يسخط ولا يفضب ولا يتمرد ، لا يهدد
ولا يتوعد ولا يثور ، وإنما هو 'مكتفٍ' بمجرد الإشارة إلى
بخل بثينة بكل ما من شأنه أن يملأ حياته نعيماً وبهجة ، بخلها
بالوصال ، باللقاء ، بريء الصدي المتعطش :

ألا إنها ليست تجود لذي الهوى
بل البخل منها شيمة ، والخلاث

وماذا عسى الواشون أن يتحدثوا
سوى أن يقولوا إنني لك عاشق
نعم ، صدق الواشون ، أنت كريمة
عليّ ، وإن لم تصف منك الخلائق
وأقصى شكواه أن يقول :

لقد خفت أن يفتالي الموت عنوة
وفي النفس حاجات إليك كما هيا
ولإني لتثني الحفيظة ، كلما
لقيتك يوما ، أن أبشك ما بيا
ألم تعلمي يا عذبة الريق أنني
أظله ، إذا لم أسق ريقك ، صاديا

ويحدثنا التاريخ أن جميل بن عبد الله بن معمر العذري قد
سبب فؤاده بثينة بنت حباب بن جحن بن ربيعة العذري ،
فالشاعر وحبيته ينتميان إلى شجرة واحدة في النسب ،
ويقان معاً في مكان واحد هو وادي القرى - وهو موضع في
الحجاز قريب من المدينة .

وكما حدث لقيس بن الملوّح وليلاه بعد أن ذاعت قصة

حبها وتناقلت أخبارها الركبان ، فحرمتم عليه وزوجت
من غيره ، حدث جميل وبثينة ، بعد أن ذاع شعره فيها
وهيامه بها ، وتحدث بها الناس في القبيلة وخارج القبيلة ، حتى
إذا جاء جميل إلى أبيها خاطباً رفضه أبوها خشية أن يقال إنه
زوجها منه سكراناً لعارها ..

وتزوج بثينة إلى فتى من عذرة : هو نبيه بن الأسود ،
لكن زواجها لا يمنع جيلاً عنها ، فهو يزورها خفية في بيت
زوجها ، ويقول فيها القصيدة بعد القصيدة ، وتساعده هي
وتدبر له الأمر حيناً ثم تصد عنه أحياناً ، وهو في الحالين
مستطار للب ، طائر العقل ، مسلوب القلب .

ونقضي الأيام ، ويدب اليأس في قلب جميل ، فيهاجر إلى
مصر ، ويمرض فيها مرضه الأخير .. حتى إذا حضرته الوفاة
كانت آخر كلماته من أجل بثينة حباً ، وتذكراً وتعلقاً
ووفاء ، حتى الرمق الأخير .. ويموت جميل سنة اثنتين وثمانين
من الهجرة ، ويبقى من بعده صوته الشعري المتوهج بالحرارة
والصدق ، ينطق بعذريته وعفته وصادق حبه ومكابدته :

أرى كلَّ معشوقين غيري وغيرها
بلذات في الدنيا ويفتبطان
وأمشي ونشي في البلاد كأننا
أسيران للأعداء مرتنهان

ضمنت لها ألا أُمِيعَ بغيرها
وقد وثقتُ مني بغير ضمانِ

* * *

والقصيدة التي نطالعها الآن لجميل مي أشهر قصائده ،
وأطولها ، وأكثرها تعبيراً عن فطرته العاشقة ، وأسلوبه
الشعري ، الذي يتفق في الكثير من جوانبه مع الطابع العام
لشعر العذريين ، أمثال قيس بن الملوّح (مجنون ليلى) وكثير
عزة وقيس لبنى وعروة بن حزام وأبي صخر الهذلي وغيرهم ..
ويظل هذا الغزل العذري على لسان جميل وأضرابه عميق
التأثير في النفس ، شديد الإثارة للماطفة ، وهو غزل لا يتوقف
عند مجرد التشبيب بمجاسن المرأة ومفاتنها - على عادة الشعر
العربي القديم - وإنما هو يتجاوز ذلك إلى الامتلاء الروحي
بنفس الشاعر ومشاعرها وآلامها وآمالها ، والتعبير عن طبيعة
العلاقة العفة الصادقة الحب التي تربطه بجيبته التي وقف عليها
قلبه دون سائر النساء ، وصارت وحدها ملهمته ومحرور نجاواه
ونداءاته ..

يقول جميل بن معمر :

ألا ليت ريمان الشباب جديدُ
ودهرأ تولى - يا بشين - يعود^(١)

(١) ريمان الشباب : أوله وأفضله ونضارته .

فنبقى كما نكون ، وأنتمو
 قريب ، وإذ ما تبذلن زهيد
 وما أنسى م الأشياء لا أنسى قولها
 وقد قرأت نضوى : أمصر تريد ؟ (١)
 ولا قولها : لولا العيون التي ترى
 لزلتكم ، فاعذرني ، فدتك جدود
 خليلي ، ما ألقى من الوجد باطن
 ودمعي - بما أخفي الغداة - شهيد
 ألا قد أرى ، والله ، أن ربَّ عبرة
 إذا الدار شطت بيننا ستريد (٢)
 إذا قلت : ما بي يا بثينة قاتلي
 من الحب ، قالت : ثابتٌ ويزيد
 وإن قلت : ردّي بعض عقلي أعش به !
 فولت وقالت : ذاك منك بعيد
 فلا أنا مردودٌ بما جئت طالبا
 ولا حبثها فيما يبید يبید (٣)

(١) نضوي : النضو : المزيل ، والمقصود به هنا : ناقتي المزيلة
 م الأشياء : من الأشياء .
 (٢) عبرة : دمة ، شطت : بعدت وتناوت .
 (٣) يبید : يفتى ريزول .

جزتك الجوازي يا بشين سلامة
 إذا ما خليل بان وهو حميد^(١)
 وقلت لها : بيني وبينك فاعلمي
 من الله ميثاق له وعهود
 وقد كان حُبِّيكم طريفاً وثالداً
 وما الحب إلا طارف وتليد^(٢)
 وإن عروض الوصل بيني وبينها
 وإن سهلتها بالني لكؤود^(٣)
 وأفنيت عمري بانتظاري وعدما
 وأبليت فيها الدهر وهو جديد
 ويحسب نسوان من الجبل أني
 إذا جئت إياهن كنت أريد
 فأقسم طرفي بينهن فيستوي
 وفي الصدر برن بينهن بعيد^(٤)

(١) الجوازي : جمع جازية ، وهي الكفافة . بان : رحل .
 (٢) طارف وتليد : حديث وقديم .
 (٣) العروض : الطريق الوعر في عرض الجبل يكتنفه مضيق ،
 والمقصود به هنا : واقع الحال بينه وبين حبيبته في الوصال واللقاء .
 كؤود : الشاق ، الصعب .
 (٤) أقسم طرفي : أوزع النظر .

ألا ليت شمري هل أبين ليلة
 بوادي القرى ، إني إذن لسميد^(١)
 وهل أهبطن أرضاً تظل رياحها
 لها بالثنايا القاويات وثيد^(٢)
 وهل ألقين « سعدى » من الدمر مرة^(٣)
 وما رث^(٤) من حبل الصفاء جديد^(٥)
 وقد تلتقي الأشتات بعد تفرق
 وقد تدرك الحاجات وهي بعيد^(٦)
 إذا جتتها يوماً من الدهر ، زائراً
 تعرض منفوخ اليدين صدود^(٧)
 بصدء وينفضي عن هوائي ويحتني
 ذنوباً عليهم _____ ، إنه لعنود

-
- (١) وادي القرى : اسم موضع قرب المدينة ، كان يقع فيه قوم
 جميل وبشينة .
 (٢) الثنايا القاويات : الطرق الخالية . وثيد : صوت عال شديد .
 (٣) رث : قدم وبلي .
 (٤) الأشتات : جمع شئت ، أي المتفرق والتباعد .
 (٥) المنفوخ : من أصابته رعدة الحمى . والرعدة هنا بسبب الغضب
 والغيرة ، والمقصود به زوج بشينة .

فأصرمها خوفاً ، كأنني بجانب
ويغفل عنا مرةً ، فنعود^(١)
ومن يُغفلَ في الدنيا قريباً كمثلاً
فذلك في عيش الحياة رشيد^(٢)
يموت الهوى مني إذا ما لقيتها
ويجيا إذا فارقتها فيعود
يقولون : جاهد يا جميل بغزوة
وأَيَّ جهاد غيرهن أريد !
لكلّ حديث عندهن بشاشة
وكل قاتل عندهن شهيد
وأحسن أيامي ، وأبهج عيشي
إذا هيج بي يوماً وهن قعود
تذكرت ليلى فالغواد عميد
وشطّأت نواها فالنزار بعيد^(٣)

(١) أصرمها : أجافها وأقاطعها . بجانب : مبتعد لا غاية له فيها .

(٢) قريباً : زوجة .

(٣) العميد : العاشق التيم الذي هدّاه العشق . شطّأت فراها : بعدت .
بها المسافات .

علقت الهوى منها وليداً ، فلم يزل
 إلى اليوم ينمي حبها ويزيد^(١)
 فما ذكر الحلان إلا ذكرتها
 ولا البخل إلا قلت^٢ سوف تجود
 إذا فكرت قالت : قد أدركت^٣ وده^٤
 وما ضرتني بخلي ، فكيف أجود^(٥)
 فلو تكشف^٦ الأشياء ، صودف تحتها
 لبثت^٧ حبة طارف وتلبد
 أم تعلمي يا أم ذي الودع أنني
 أضاحك ذكراكم وأنت صلود^(٨)

(١) علقت الهوى : أصابني الهوى وقلكتني . ينمي : يزيد ويتضاعف .

(٢) قد أدركت رده : قد استحوذت على مودته وحبه رغم بخلها .

(٣) الودع : خورزات بيض تستخرج من البحر تشق كالنواة وتعلق في أعناق الأطفال لدفع الحسد ، والقصود : يأم ذي الودع : بشينة . صلود : بخيلة جداً .

لهل ألقين فرداً بشينة ليسة
تجود لنا من ودّها ونجود^(١)
ومن كان في حيي بشينة يمتري
« غبرقاء ذي ضال » عليّ شهيد^(٢)

(١) فرداً : منفرداً ، بعيداً عن الناس .

(٢) يمتري : يشك . برقاء ذي ضال : اسم موضع كان جميل وبشينة
يلتقيان فيه بعيداً عن الرقباء .

[لُبْنَى]

لقيس بن ربيح

يقول عنه ابن فضل الله العمري في كتابه : « ممالك
الأبصار » :

عاشق شفه التبريح ، ووامق لم يشفه التصريح ، تيممه
حُب 'لُبْنَى' وهيمة هواها فما أغنى ، أصبته حسنا وسبته
بمحيا كالبدر أو أسنى ، جلبت له حزنا طويلا ، وجنت له
من روض حسنها مرعى وبيلا ، ، تزوج بها وهو بها كليف ،
وبجبتا شغف ، ثم أدمن مجالستها وأدمن مؤانستها ، وولع
بتأمل محاسنها ، وتنقل نظره في رؤية أحاسنها ، حق طبع
هواها على قلبه ، وطلع أنينه بما قطع من خلبه ، وألف لأجلها
ظل الحياء لا يفارقه ، وأنكر فضل الحياء كأنه ما دبّت
بخدمته شقائقه .

فمزّ هذا على أبيه ، وطالبه بطلاقها فأبى ، وأبى أبوه إلا
أن يذيقه مرارة فراقها على صبي . ثم لما رأى إصراره على

حب لبني واستمراره على حاله المعني ، أصغر أبوه وآلى ألا
يستظل بيت حتى يلقي حبها على غاربها ، ويلحق خطاها
بيت أقاربها ، وكان أوان حرّ تطفح هواجره وينفج بالسموم
ناجره .

فأقبل كهول الحي على قيس يلومونه على حقوق أبيه ،
ويخوفونه عقوق أمره في امرأة تصببه ، ثم ما برحوا به حتى
طلقها . لما انطلقت إلا هي ولُبه ، وفارقها فما فارقت إلا
ومعها قلبه . ووجد بها وجداً أقلق مضاجعه ، وقلقل في
الماقي مدامعه ، وزوجه أبوه بامرأة غيرها ليسوا لبني ويخلو
معا أياماً ينسى بها لياليه الحسنى ، فما وقعت الثانية منه
موقعاً ، ولا وجدت في قلبه موضعاً ، فبيّدت فراقها ، وبّت
طلاقها .

ثمّ الناس في قيس على قسمين : فمنهم من زعم أنه ردها ،
ونعم بها ليل التام يفتش بردها ، ومنهم - وهم الجمهور -
على أنه بقي بحباله ، صريح هوّى ما أفاق ، وقريح جوّى
هنيى من أحبابه بالفراق . .

* * *

هذه هي القصة ، قصة قيس ولبنى كما جاءت في كتب
التراث العربي القديم ..

وقيس هذا هو قيس بن ذريح بن الحباب بن منة ..

ينتهي نسبه إلى خزيمه من عرب الشمال .. ويقولون إنه من
أعراب الحجاز، وإن قوم قيس كانوا ينزلون في ظاهر المدينة،
أما هو وأبوه فكانا من حاضرتها .. ويبدو أنه كان كثير
التنقل بين بوادي المدينة حيث يقيم أهله وبوادي مكة حيث
يقيم أهل أمه من خزاعة .

أما لبنى هذه التي تغنى بها قيس ، وصار منسوباً إليها ،
فهي لبني بنت الحباب أم معمر ، من بني كعب من خزاعة ،
يصفونها بأنها كانت مديدة القامة ، يخالط سواد عينيها زرقة ،
حلو المنظر والكلام ، وقالوا أيضاً إنها كانت بهية الطلعة ،
عذبة الكلام ، سهلة المنطق . وتبدأ القصة على هذه الصورة :
في إحدى زورات قيس لأخواله ، اشتد الحر فشر
بالظمأ ، فوقف على خيمة والرجال غائبون ، فطلب ماء ،
فبرزت له لبنى فسقته وأعجب بها ، وطلبت إليه أن يستريح
عندهم حتى تخف وطأة القيظ ، فلباها وتحادها ، فلكت عليه
فؤاده ، وملك عليها فؤاده ، وقدم أبوها فرحّب به ونحرّ له ،
واحتفى ، وأكرمه . وانصرف قيس وقد غلبه الهوى ،
فأنطقه شعراً رواه الرواة ، وشاع في المجالس .

ويتزوج قيس من لبنى ، ويجتمع شمل الحبيبين ، ويقبآن
أمدأ في ظل سعادة وارفة ، وهناك متصل ..

لكن قيساً - وحيد والديه الثريين - ينسيه حبه للبنى
وزواجه منها كل شيء آخر في حياته .. فتغضب أمه لما ترى

من اغتصاب امرأة أخرى له ، فتكيد لزوجته ، وتتفنن في الإيقاع بينها .. خاصة وأن لبنى لم تنجب من قيس . ويستمر الحال هكذا عشر سنوات .

ثم يجتمع عليه أبوه وقومه ناصحين له بالزواج من إحدى بنات عمه ، لعل الله أن يهب له ولدًا يرث ثروة الأسرة من بعده .. ولا يستجيب لهم قيس ، فيجيئه القوم ثانية من كل ناحية ، ويمظنون عليه الأمر ، إذ كيف يفعل 'سدا' بأبيه وأمه ؟ ولئن مات أبوه على هذه الحال فهو 'معين' وشريك في قتله .

ويضطرع في نفس قيس برؤى بوالديه وحب لزوجته ، ولا تحتل نفسه هذا الموقف الصعب ، وأخيراً ينهار في لحظة ضعف فيرضخ لطلب أبويه وإلحاح قومه ، ويطلق لبنى .

ثم لا يلبث قيس أن يستشعر وقع القبيحة ، فجيئته في حبه ، ويحس بالفراغ الذي خلفته لبنى في حياته ، واللوعة التي ملكت كل جوانحه ، فينطلق لسانه بالأشعار الباكية .

* * *

نحن إذن أمام واحدة من قصص الحب العذري ، بطلها عاشا في مستهل القرن الأول الهجري - فالروايات تذكر لنا أن قيساً ولد بين عامي أربعة وستة للهجرة - واختلطت قصتها - بما تتلى به من حكايا وأشعار - ببقية قصص هذا الحب ، خاصة بقصة قيس بن الملوّح وليلاه - المعروف باسم

مجنون ليلي - وأصبح الناس ينسبون شعر هذا إلى ذاك ،
ما دام كله شعراً. عذرياً ، واضح الخصائص والسمات ، بل
وينسبون القطعة الواحدة إلى شعراء متعددين .. لهذا فنحن
نجد في ديوان قيس لبنى أربعاً وعشرين مقطوعة يتنازعها مع
مجنون ليلي ، فضلاً عن قصائد أخرى يتنازعها مع جميل بثينة
وابن الدؤينة وكثير عزّة وعروة بن حزام ..

وفي شعر قيس بن ذريح ما نجده في شعر المدرّين من رقة
وجزالة ، وعاطفة صادقة مشبوبة .. وتعبير جميل آسر .
يقول عنه القدماء : « ونظمه في الذروة العليا رقة وحلاوة
وجزالة » . وأطول قصائده وأشهرها هي قصيدته العينية ،
التي نطالع فيها صورة صادقة لحبه العميق للبنى ، متضمنة
ندمه ولوعته بعد طلاقها منه وفراقها له ، ولكن هيهات ينفع
الندم ، إن خلاصه الوحيد في البكاء ، وبث شجونه ولوعة
هيامه ، خلال أبيات يرسلها وقد حملت زفرات من سحر قلبه
وحرارة معاناته ..

يقول قيس بن ذريح :

عفا سرف من أهله فسراورع^١

فجنباً أريك فالتلاع^٢ الدوافع^٣

(١) سرف وسراورع : موضعان بالقرب من مكة . أريك : واد في
بلاد بني مرة . التلاع : جمع تلعة . وهي مجرى الماء من أعلى الوادي .
الدوافع : التي تدفع وتهبط إلى الوادي .

لعلَّ لُبَّيْنِي أَنْ يُحَمَّ لِقَاؤُهَا
 ببعض البلاد ، إنَّ ما حُمَّ واقعٌ (١)
 يَجْزَعُ من الوادي خلا عن أنيسيه
 عفا وتخطَّته العيون الخوادر (٢)
 ولما بدا منها الفراق ، كما بدا
 بظهر الصفا الصلر الشقوق الشوائع (٣)
 تَنَدَّيْتُ أَنْ تَلْقَى لُبَّيْنَاكَ ، والمنى
 تماصيك أحيانا ، وحينما تطاوع
 وما من حبيبٍ وامقٍ لحبيبه
 ولا ذي هوى إلا له الدهر فاجعٌ (٤)
 وطار غراب البين وانشقت العصا
 بينن كما شقَّ الأديم الصوانع (٥)

(١) حُمَّ : قدر وقضي .

(٢) الجزع : جانب الوادي ومنعطفه . عفا : درس وزال . الخوادر : التي لا تنام .

(٣) الصفا الصلر : الحجر الصلب الضخم . الشوائع : المفرقة أو الظاهرة .

(٤) وامق : شديد الحب .

(٥) البين : الفراق . انشقت العصا : تفرقت الأمور . الأديم : وجه الأرض . الصوانع : جمع صانع .

ألا يا غراب البين قد طرت بالذي
 أحاذر من لُبنى ، فهل أنت واقع !
 وإنك لو أبلغتها قيلك : اسلمي
 طَوْتُ حزنًا وارفض منها المدامع ^(١)
 أتبكي على لبنى ، وأنت تركتها
 وكنت كآتٍ غيِّه وهو طائع ؟ ^(٢)
 فلا تبكين في إثر شيء ندامة
 إذا نزعتنه من يدك النوازع
 فليس لأمره حاول الله تجنعه
 'مشت' ، ولا ما فرّق الله جامع ^(٣)
 طمعت بلبنى أنت قريع ، وإنما
 تقطع أعناق الرجال المطامع ^(٤)
 كأنك لم تمنع إذا لم 'تلاقها'
 وإن تلقيا فالقلب راضٍ وقانع

(١) قيلك : قولك . ارفض : سال وتفرق .

(٢) القي : الضلال والحيرة .

(٣) 'مشت' : مفرق .

(٤) قريع : زوج .

فيا قلبُ خبّرني إذا شطّطت النوى
 بلبني وصدّات عنك ما أنت صانع ^(١)
 أتصبرُ للبينِ المُشَيّتِ مع الجوى
 أم أنت امرؤُ ناسي الحياء فجازع
 فما أنا إن بانت لبيني بهاجع
 إذا ما استقلتُ بالنيام المضاجع
 وكيف ينام المرء مستشعر الجوى
 ضجيج الأسى فيه نكاسٌ روادع ^(٢)
 فلا خيرَ في الدنيا إذا لم تُواتِنَا
 لبيني ، ولم يجمع لنا الشمل جامع
 أليست لبيني تحت سقفي يُكِنها
 وإيتاي ، هذا إن فأت لي نافع ^(٣)
 ويلبسنا الليل البهيمُ إذا دجا
 ونبصر ضوء الصبح والفجرُ ساطع ^(٤)

(١) شطّطت : بمدت .

(٢) النكاس : جمع نكس وهو المرض المعاند الذي لا يبرح . الروادع : جمع رادعة وهي التي تردعه (تمنعه) عن الحركة والتصرف .

(٣) يَكْنِها : يحميها ويؤويها . السقف : المقصود به هنا هو السماء .

(٤) دجا : أظلم .

تطا تحت رجلها بساطاً وبعضه
أطاهُ برجلي ، ليس يطويه مانع^(١)
وأفرح إن أمست بخير وإن يكن
بها الحدث العادي ترعني الروائع^(٢)
كأنك بدع لم تمرّ الناس قبلها
ولم يظلمك الدهر فيمن يطالع
فقد كنت أبكي والنوى مطمئة
بنا وبكم من علم ما البين صانع
وأهجركم هجر البغيض ، وجبكم
على كبدي منه كلوم صواع^(٣)
فواكبدي من شدة الشوق والأسى
وواكبدي إني إلى الله راجع
وأعجل للإشفاق حتى يشفني
مخافة وشكّ البين والشمل جامع^(٤)

(١) تطا : تطأ (رشفت الحمزة) .

(٢) الحدث العادي : الخطب الجسيم النازل بها . ترعني : ترعني .
الروائع : المفزعات .

(٣) الكلوم : جمع كلم ، الجرح . الصواع : المزلزلة المؤثرة .

(٤) 'يشفني' : يطهني . وشكّ البين : قرب الفراق .

وأعبد للأرض التي من ورائكم
لترجعني يوماً إليك الرواجع
فيا قلب صبراً واعترافاً لما ترى
ويا حبها قم بالذي أنت واقع
لعمري لمن أمسى وأنت ضجيرة
من الناس ما اختيرت عليه المضاجع^(١)
ألا تلك لبني قد تراخي مزارها
وللبين غمّ ما يزال ينزع
إذا لم يكن إلا الجوى ، فكفى به
جوى حُرّقٍ قد ضمنتها الأضالع
أبائنة لبني ولم تقطع المدى
بوصلٍ ولا صَرمٍ فييأس طامع^(٢)
يظلّ نهارُ الواهينَ نهاره
وتهده في النائمين المضاجع^(٣)

(١) ضجيرة : زوجته وحليته . لما اختيرت عليه : ما فضلت عليه .

(٢) الصرم : القطيعة والفراق .

(٣) الواهين : جمع واه ، الشديد الحزن والوجد حتى ليكاد يفقد عقله . تهده : تسكنه وتهده .

سواءٌ ، فليلي من نهاري وإنما
 تقسم بين الهالكين المصارع^(١)
 ولولا رجاء القلب أن تسعف النوى
 لما حلت بينهن الأضالع
 له وجباتٌ إثر لبنى ، كأنها
 شقائق برقٍ في السحاب لوامع^(٢)
 نهاري نهار الناس حتى إذا دجأ
 ليّ الليل هزّني إليك المضاجع
 أفضي نهاري بالحديث وبالمنى
 ويجمعني والهمّ بالليل جامعُ
 لقد ثبتت في القلب منك مودة
 كما ثبتت في راحتين الأصابع^(٣)
 أبى الله أن يلقى الرشاد مُتَيِّمُ
 لا كلُّ أمرٍ حمّ لا بدّ واقع^(٤)

-
- (١) سواء : أي سواء عليّ ليلي ونهاري فيها مقشبان في وقفي عليّ .
 (٢) وجبات : خفقات ، شقائق برق : موجات من البرق المتتابع .
 (٣) راحتان : اليدين . [هذا البيت والبيتان السابقان له ينسبها
 الرواة إلى مجنون ليل أيضاً] .
 (٤) حمّ : قدّر ونزل .

هما برّحاً بي مُعولينِ كلامها
 فؤادٌ وعينٌ جففتها - الدهر - دامع^(١)
 إذا نحن أنفدنا البكاء عشيّة
 فمعدنا قرْن من الشمس طالع^(٢)
 وللحب آياتٌ تبينُ بالفق
 شحوبٌ وتمرى من يديه الأشاجع^(٣)
 وما كلُّ ما منشك نفسك خالياً
 تلاقِي ، ولا كلُّ الهوى أذت تابع
 تداعت له الأحزان من كلِّ وجهة
 فحنٌّ كما حنَّ الظُّوار السواجع^(٤)
 وجانبُ قرْب الناس يخلو بهم
 وعأوده فيها هيام مراجع

(١) برّحاً بي : أتعباني وأجهداني . الدهر : طول الدهر .
 (٢) أنفدناه : أنهيناه ولم نترك منه شيئاً . قرن من الشمس : شروق
 الشمس في صباح اليوم التالي .
 (٣) تبين : تظهر . الأشاجع : أصول الأصابع التي تتصل بالأعصاب
 أرهي عروق ظامر الكف . وتمرى الأشاجع : أي تهزل اليداث
 ويلهب ما عليها من لحم .
 (٤) تداعت : أتبلت وتجمعت . الظُّوار : النيات التي تعطف على ولد
 غيرها . للسواجع : التي يمور بها الحنين .

أراك اجتنبتَ الحيَّ من غيرِ بِنْفَضَةٍ
 ولو شئتَ لم تجنحَ إليك الأصابعُ (١)
 كأنَّ بلادَ الله ما لم تكن بها
 - وإن كان فيها الخلقُ - قفرٌ بلاقعُ (٢)
 ألا إنما أبكي لما هو واقعُ
 وهل جزعُ من وشكٍ بينك نافعُ ؟
 أحال عليَّ الدهرُ من كلِّ جانبٍ
 ودامت فلم تبرحَ عليَّ الفجائعُ (٣)
 فمن كان محزوناً غداً لفراقنا
 فيلآنَ فليبكِ لما هو واقعُ (٤)

-
- (١) بِنْفَضَةٍ : كراهية وعداوة . تجنح : تميل .
 (٢) بلاقع : جمع بلقع وهي الأرض الخراب القفر .
 (٣) أحال عليَّ : دفع بالمصائب وعرفها إليَّ .
 (٤) فيلآن : لمن الآن .

عزّة..

لِكثِيرِ عَزَّةٍ

يُزهدني في حبّ عزّةٍ معشر
قلوبهم فيها 'مخالفة' قلبي
فقلت دعوا قلبي وما اختار وارتضى
فبالقلب لا بالعين يبصر ذو اللبّ
وما تبصر العينان في موضع الهوى
ولا تسمع الأذان إلاّ من القلب

* * *

هو كَثِير بن عبد الرحمن الخزاعي ، شاعر حجازي من شعراء العصر الأموي ، ويكنى أبا صخر ، اشتهر بكثير عزة نسبة إلى محبوبته عزة التي قال فيها أكثر شعره في الغزل والتشبيب ، والعزة في اللغة هي بنت الطيبة ، أما عزة هذه فهي بنت جميل بن حفص وكنيتها أم عمرو وكان يطلق عليها أيضاً الحاجبية نسبة إلى جدها الأعلى .

ويقول لنا رواة الشعر العربي القديم إن كثير عزة أحد
عشاق العرب البارزين ، وأنه شاعر أهل الحجاز ، وإنهم
ليقدمونه على كثير من شعراء أهل زمانه حتى لقد قال بعضهم
إنه أشعر أهل الإسلام ...

ثم يقدمون له صورة وصفية طريفة ، فهو قصير شديد
القصر ومن هنا كانت تسميته بكثير على سبيل التصغير . يقول
الوقاصي : رأيت كثيراً يطوف بالبيت فمن حدثك أنه يزيد
على ثلاثة أشبار فلا تصدقه ، وكان كثير إذا دخل على
عبد الملك بن مروان - الخليفة الأموي - يقول له : طأطأ
رأسك حتى لا يصيبه السقف ..

ويصرح كثير نفسه بهذا القصر في شعره فيقول :

وإن ألك قصرأ في الرجال فإني

إذا حل أمرٌ ساحتني لطويل

ثم يضيفون أنه كثير الاعتداد بنفسه ، كثير المعجب
والزهو والخيلاء ، حتى إن الناس كانوا يميئونه من الورا
فيأخذون رداءه فلا يلتفت من الكبير ويمضي في قميص ...
وإنه كان يؤمن بالرجعة والتناسخ .

وكان خلفاء بني أمية - وفي مقدمتهم عبد الملك بن مروان -
شديدي الإعجاب بشعره ، خاصة مدائحه . يروون أنه قال
 يوماً لعبد الملك : كيف ترى شعري يا أمير المؤمنين ؟

قال : أراه يسبق السحر ويفلب الشعر ..
وقال له عبد الملك يوماً : من أشعر الناس يا أبا صخر ؟
قال كثير : من يروي أمير المؤمنين شعره .
فقال عبد الملك : إنك لمنهم ..

ويتفنن الرواة في صياغة أخباره وقصصه مع محبوبته عزة ،
وكيف بدأ تعشقه لها ، فيقولون إنه مرّ ذات يوم بنسوة من
بني حزة ومعه قطيع أغنام ، فأرسلن إليه «عزة» وهي بعد
صغيرة فقالت له : تقول لك النسوة بعنا كبشاً من هذه الغنم ،
وانسئنا بثمنه إلى أن ترجع — أي أمهلنا في دفع ثمنه حتى
تعود — فأعطاهما كثير كبشاً ، ووقعت هي من قلبه موقعاً
عظيماً ، فلما رجع جاءت امرأة منهن بدراهم فقال لها :
وأين الصبية التي أخذت مني الكبش ؟ قالت : وما تصنع بها؟
هذه دراهمك ، فقال : لا آخذ دراهمي إلا بمن دفعت إليه :
وانصرف وهو ينشد :

قضى كلّ ذي دينٍ فوقّي غريمه
وعزّةٌ ممطولٌ مُعنّى غريمها
فقلن له : أبذت إلا عزّة ! وأبرزنا لها وهي كارهة . ثم
لأنها أحبته بعد ذلك أشدّ من حبه لها .

ويحلو للقدماء أيضاً أن يقارنوا بينه وبين جميل بن معمر
صاحب بشيرة . فيقولون إن كثيراً يتقول ولم يكن عاشقاً أما

جميل فكان صادق الصباية والعشق ، وإن جميلاً كان يصدق في حبه أما كثير فيكذب في حبه ..

ثم يضيفون أن عدد النساء اللواتي شيعنه عند موته كان أكثر من عدد الرجال ، وكن يبيكينه ويذكرن عزته في ندين .. وكادت وفاته في خلافة يزيد بن عبد الملك سنة خمس ومائة من الهجرة ..

* * *

والقصيدة التي نطالعها الآن من شعر كثير هي أطول قصائده على الإطلاق ، وأشهرها ، وأكثرها ذيوماً ، والقدماء يعدونها من منتخباته ، والغريب أن كثيراً يلتزم في ختام أبيات هذه القصيدة حرف اللام قبل حرف الروي وهو التاء ، فجعل لها قافية مزدوجة من اللام والتاء ، فهي إذن صورة متقدمة لشعر اللزوميات الذي عرفناه بعد ذلك عند أبي العلاء المعري . ولهذا القصيدة - الناطقة بفن كثير الشعري ، وأسلوبه السهل المتنوع في صياغة المعنى الشعري والصورة الشعرية - قصة "طريقة" من الطريف أن نستمع إليها .

روي أن عبد الملك بن مروان سأل كثير عزة عن أعجب خبر له مع عزة فقال : يا أمير المؤمنين حججت ذات سنة وحج زوج عزة معها ولم يعلم أحدنا بصاحبه ، فلما كنا ببعض الطريق أمرها زوجها بابتلاع سمّين تصلح به طعاماً لرفقته فجعلت تدور بالحياض خيمة خيمة حتى دخلت إلي وهي لا تعلم أنها

خبيتي وكنت أبري سهماً ، فلما رأيتها جعلت أبري لمحي
 وأنظر إليها حتى برت ذراعي وأنا لا أعلم به والدم يجري ،
 فلما علمت ذلك دخلت إليّ فأمسكت يدي وجعلت تمسح
 الدم بثوبها ، وكان عندي نجىء سمن (وعاء سمن) فحلفت
 لتأخذه فأخذته ، وجاء زوجها فلما رأى الدم سألها عن خبره
 فكأنته حتى حلف عليها لتصدقنه فصدقته فضرها وحلف
 عليها لتشتمني في وجهه فوقفت عليّ وقالت لي وهي تبكي :
 يا ابن (....) فأنشدت :

خليليّ ، هذا ربع عزة ، فاعقلا
 قلوبكما ، ثم ابكيا حيث حلت (١)
 ومسا ترابا كان قد مسّ جلدها
 وبیتنا وظلاً حيث باتت وظلت
 ولا تياسا أن يحو الله عنكما
 ذنوباً إذا صليتما حيث صلتا
 وما كنت أدري قبل عزة ما البكا
 ولا موجعات القلب حتى تولتا (٢)

(١) ربع عزة : موضع دارها . اعقلا : شدا واربطا . قلوبكما :
 القلوب الناقاة الشابة النشيطة .
 (٢) تولت : ذهبت وأدبرت .

وقد حلفت جهداً بما نحرثُ له
 قريشُ غداة « المأزمينِ » وصلتُ (١)
 أناذيكِ ما حجُ الحُجيجِ وكبرتُ
 « بغيها غزالِ » رفقة وأهلتُ (٢)
 وما كبرتُ من فوق « ركة » رفقة
 ومن « ذي غزال » أشعرتُ واستهلتُ (٣)
 وكانت لقطع الحبل بيني وبينها
 كناذرة نذراً ، فأوفت وحلتُ (٤)
 فقلت لها : يا عزُّ كلِّ مصيبةٍ
 إذا وطئت يوماً لها النفس ذاتُ (٥)

(١) المأزمان : موضع بكعة بين المشعر الحرام وعرفة (بين عرفة والمزدلفة) وهو شعب بين جبلين يفضي آخره إلى بطن عرفة وبه المسجد الذي يجمع فيه الإمام بين صلاتي الظهر والعصر . حلفت جهداً : أي بالعت في البمين .

(٢) بغيها غزال : أي بغيها غزال . موضع بكعة حيث ينزل الناس منها إلى الأبطح . أهلت : رفعت صوتها بالتلبية . ما حج الحُجيج : أي طيلة مدة حج الحُجيج .

(٣) ركة : واد بين مكة والطائف . رفقة : رفاق . جمع رفيق . أشعرت : جعلت لنفسها شعاراً . . وشعار القوم علامتهم في السفر .

(٤) حلت : أوفت بعهدها وخرجت من ميثاق كان عليها .

(٥) وطن نفسه على الشيء : أي حملها عليه حتى تذلل له وتخضع .

ولم يلق إنسان من الحب مبعة
 تعم ، ولا عيباء إلا تجلت (١)
 تمنيتها حتى إذا ما رأيتها
 رأيت المنايا شرعاً قد أظلت (٢)
 كأني أنادي صخرة حين أعرضت
 من الصم لو تمنني بها العصم زلت (٣)
 صفوحاً فما تلقاك إلا بخيلة
 فمن ملّ منها ذلك الوصل ملت
 أباحت حتى لم يرعه الناس قبلها
 وحلت تلاعاً لم تكن قبل حلت (٤)
 فليت قلوصي عند عزة قيدت
 بحبل ضعيف 'حز' منها فضلت

(١) مبعة الشيء : أوله أو معظمه . تعم : تشمل . العيباء : الضلالة والجهالة . تجلّنت : انكشفت وانفجرت .

(٢) المنايا : جمع منية ، الموت . 'شرعاً' : مسددة ، موجهة .

(٣) الصم : الصخرور الصلبة المصمتة . العصم : جمع عصماء والأعصم من الظباء والوعول مسا في ذراعيه أو إحداهما بياض ومائره أحرر أو أسود . زلّنت : زلعت .

(٤) للتلاع : جمع تلمة ، الأرض المرتفعة .

وغودر في الحي المقيمين رحلها
 وكان لها باغ سواي قبلت (١)
 .كنت كذي رجلين : رجل صحيحة
 ورجل رمى فيها الزمان فشلت
 وكنت كذات الظلع لما تحاملت
 على ظلمها بعد العثار استقلت (٢)
 أريد الشواء عندها ، وأظنها
 إذا ما أطلتنا عندها المكث ملت (٣)
 فما أنصفت ، أما النساء فبغضت
 إليّ ، وأما بالنوال فضت (٤)
 يكلفها الغيران شتمي ، وما بها
 هواني ، ولكن للمليك استذلت (٥)

(١) بلت : هامت ضالة* على وجهها .

(٢) كذات الظلع : كالناقة العرجاء . تحاملت : تكلفت المشي بشقة .
 استقلت : ذهبت وارتحلت .

(٣) الشواء : الإقامة . المكث : البقاء .

(٤) النوال : العطاء ، والمقصود به الوصال .

(٥) الغيران : ذو الغيرة ، يقصد به زوج عزة . المليك : أي المالك
 الذي يملك وهو زوج عزة . استذلت : هانت وخضعت .

هنيئاً مريئاً - غير داء مخامر -
لعزة من أعراضنا ما استحلت (١)
فوالله ما قاربنا إلا تباعدت
بصرم ، ولا أكثرنا إلا أقلت (٢)
وكنا سلكننا في صعود من الهوى
فلما توافينا : ثبت وزات
وكنا عقدنا عقدة الوصل بيننا
فلما توائمنا : شددت وحلت
وإن تكن العتبي فأهلاً ومرحباً
وحقت لها العتبي لدينا وقلت (٣)
وإن تكن الأخرى ، فإني وراءنا
منادح لو سارت بها العيس كلت (٤)

(١) مخامر : غائط ومداخل . من أعراضنا ما استحلت : يقصد
شقيته في عرضه إطاعة لأمر زوجها .
(٢) صرم : قطيعة ومجران .
(٣) العتبي : الرضى وإزالة اللوم .
(٤) منادح : جمع مندوحة وهي الأرض الواسعة البعيدة . العيس جمع
عيساء وأعيس : الإبل البيض الكريمة يخاطبها شفرة أو ظلمة خفيفة .
كلت : تعبت من السير .

خليلي^١ إن الحاجبية طلعت^٢
 قلو صيكا ، وناقني قد أكلت^٣
 فلا يبعدن وصل لعزة ، أصبحت
 بعاقبة أسبابه قد توات^٤
 أسيتي بنا أو أحسنني ، لا ملومة^٥
 لدينا ، ولا مقلية إن تقلت^٦
 ولكن أنيلي ، واذكري من مودة
 لنا خلّة كانت لديم فطلت^٧
 فإني وإن صدت لمثنى وصادق
 عليها ، بما كانت إلينا أزلت^٨
 فلا يحسب الراشون أن صبابتي
 بعزة كانت كغمرة فتجلت^٩

-
- (١) الحاجبية : يقصد بها عزّة. طلعت وأكلت : أتعبت وأجهدت.
 (٢) فلا يبعدن : فلا يهلكن . بعاقبة : في ختام الأمر .
 (٣) مقلية : مبطنة ومكرومة من القلى ، أي البغض . تقلت : تبغضت .
 (٤) الخلّة : المحبة والصداقة . طلّت : أي منعت وأهدرت .
 (٥) أزلت : أسدت وأعطت .
 (٦) الراشون : الذين يشون بالنميمة ويزينون الكذب . غمرة : شدة .
 تجلت : انفرجت .

فأصبحتُ قد أبْلُتُ من دَنَفِهَا
 كما أدْنِفتُ هَيْمَاءَ ثم استَبِلْتُ (١)
 فواللهِ ثم اللهُ ما حلَّ قبلها
 ولا بعدها من نُخْلَةٍ حيث حَلَّتْ (٢)
 وما مرَّ من يومٍ عليَّ كيومها
 وإن عَظُمَتْ أيامُ أخرى وجَلَّتْ (٣)
 وأُضحتُ بأعلى شامقٍ من فؤاده
 فلا القلب يسلاها ولا العين ملَّتْ (٤)
 فيا عجباً للقلب كيف اعترافه
 وللنفس لَمَّا وطنت كيف ذلتْ (٥)

(١) أبْلُتُ : شفيت . الدَنَفُ : المرض الملازم . الهَيْمَاءُ : الناقة التي أخذها الهيام وهو داء يصيب الإبل فتظل بهم في الأرض دون أن ترعى حتى تموت . استَبِلْتُ : برئت وشفيت .

(٢) الحَلَّةُ : الخلطة ، أي الحبيبة والصديقة .

(٣) أيام أخرى : أي أيام امرأة أخرى . جَلَّتْ : عظمت .

(٤) الشامق : المرتفع . يسلاها : يلساها ، ويردى البيت هكذا :

وللعين أسرابٌ ، إذا ما ذكرتها

والقلب وسواس إذا العين ملَّتْ

(٥) اعترافه : اصطباره . ذلت : خضعت واستسلمت وأطاعت .

وإلي وتَهَيَّأَني بعزَّة بعدما
 تَخَلَّيْتُ ما بيننا وتَخَلَّتْ (١)
 لكالمَرَجِي ظلَّ الغَيَّامة ، كلما
 تَبَوَّأَ منها للمَقِيلِ اضمحلَّتْ (٢)
 كأنَّني وإيَّاهما سحابةٌ 'محل'
 رجاها ، فلما جاوزتهُ استهلَّتْ (٣)
 فإن سأل الواشون فيم هجرتها
 فقلْ : نفسُ حُرٍّ 'سليت' فقلَّتْ (٤)

-
- (١) التهيَّأ : شدة الغيام والعشق بما يشبه الجنون . تخلَّت : تركت .
 (٢) تبوَّأ المكان : اتخذهُ للإقامة . اضمحلَّت الغَيَّامة : انقضت
 وذهبت .
 (٣) سحابة محل : سحابة بلد محل (المحل : الجذب وانقطاع المطر
 وخلاؤه الأرض من الكلأ) استهلَّت : أمطرت وصبت مائها .
 (٤) الحر : الكريم ذو الإنفة . سلَّيت : أخذت تسلو أي تلسى .

وأمرت لؤلؤا

ليزيد بن معاوية

وهذه قصيدة فاتنة ، عنيت بها كتب البلاغة العربية ،
لامتلائها بالصور والتشبيهات والاستعارات التي يتذوقها
الدارسون على أنها نماذج لبلاغة التعبير الأدبي. والقصيدة تنسبها
كتب التراث العربي ليزيد بن معاوية بين ما ينسب له من
مقطوعات شعرية أخرى . ولئن صدقت هذه النسبة ، لكننا
إزاء شاعر أصيل مطبوع ، له أسلوبه الشعري المتميز ،
وطرائقه في التعبير ، وعنايته بالصور الطريفة المبتكرة ، تلك
التي هام بها البلاغيون والبدعيون استشهاداً وتحليلاً وتمثيلاً .
ولا نظن أن كتاباً من كتب البلاغة العربية يخلو من هذا
البيت الشعري المأثور ، يستشهد به على تنابح الاستعارات
والصور الشعرية :

وأمرت لؤلؤا من نرجس وسقت
ورداً ، وعضت على العناب بالبرد

وكثيراً ما نملكبتنا الدهشة والغربة لهذا الشاعر الذي
افتنّ في وصف حبيبته وهي تبكي وتلتحب ، قصور دموعها
لؤلؤاً ، وعينيها نرجساً وخديها ورداً ، وشفتيها عُنَّاباً ،
وأسنانها بَرَدَاً .. وكل هذه الصور المجمعّة قد جاءت في بيتٍ
واحداً ... فتأملوا !

وإذا صح أن الشاعر هو يزيد بن معاوية ، فهو إذن ثاني
خلفاء بني أمية ، تولى الحكم بعد وفاة أبيه معاوية ، وهو الذي
أمر عبد الله بن زياد والي الكوفة بمحاربة الحسين وأتباعه
فهمزهمس في كربلاء ، وقتل الحسين في المعركة .. وبمقتله
استتب الأمر للأمويين في دمشق ، واستقرت خلافتهم فيها ،
وبدأوا يلتفتون إلى ما أحاط حياتهم من رفاهية ونعيم ، وحياة
رغدة تليق بأهل القصور ..

لهذا نجد في شعر يزيد هذا الجوّ المترّف ، وهذه الصور
الطيّعة لمن شب في رفاهية العيش ونعيمه وهناءته ، ورقّة
الطبع التي لا يؤتاها إلا من عمرت نفسه ببهاج الحياة ومتعتها ،
وأصبح الحب لديه صورة مُنغمة مطرزة ، يفتنّ في إكسابها
شتى الألوان والسمات .. يقول في إحدى قصائده :

خذوا بدمي ذاتَ الوشاحِ ، فإنني
رأيت بعيني في أناملها دمي
ولا تقتلوها إن ظفرتم بقتلها
بلى ، خبثوها بعد موتي بأتقي

ثم يقول :

ولما تلاقينا ، وجدت بنانا
مخضبة تحكي غصارة عندهم

فقلت : خضبت الكف بعدي ، هكذا
يكون جزاءُ المستهامِ التيم !

فقلت وأبدت في الحشا حرق الجوى
مقالة من في القول لم يتبرم

وعيشك ما هذا خضاباً عرفته
فلا تكُ بالبهتانِ والزورِ متهمي

ولكنني لما رأيتكُ نائياً
وقد كنت لي كفي وزندي ومعصي

بكيتُ دماً يوم النوى ، فمسحته
بكفتي ، وهذا الأثر من ذلك الدم

فهذا عاشق لا يستوقفه إلا الخضاب على أنامل محبوبته ،
فيدير معها هذا الحوار المترف - يذكرنا بما يدور من حوارات
ناعمة بين أهل القصور - ويختتمه بتوضيح سبب هذا الخضاب ،
فقد بكت المحبوبة عليه دماً يوم فراقه ، فلما أرادت مسح
هذا الدم بكفها تخضبت أناملها .. فهي لم تتزين قط بعد
رحيله حزناً عليه ، لكن دماً هو الذي يصبغ أناملها .

والعاشق هنا عاشق أمير ، المحبوبة هي التي تبكي عليه
غداة نأيه ويُبْعده ، بعد أن كان لها الكفّ والزند والمعصم ،
وهي لا تبكي عليه دموعاً ولكنها تبكي عليه دماً ، من شدة
ما تحمله له من حب ووجد وتبريح ، فانظروا أي نعم وترف
وتدلل !

يبقى أن نلتقي بالقصيدة التي شاعت شهرتها منسوبة إلى
يزيد ، وأن نشبع فضولنا بالتعرف على أبياتها الجميلة ، ذات
العاطفة الرقيقة المترفة ، عاطفة أبناء القصور ، وأصحاب
الترف والنعم ..

يقول يزيد بن معاوية :

نالت على يدها ما لم تنله يدي
نقشاً على معصم أوهت به جلكدي (١)
كانه 'طرق' نمل في أناملها
أو روضة رصّعتها السحب بالبرد (٢)

(١) أوهت به جلكدي : أضمت قدزقي على التحمل .

(٢) الأنامل : جمع أنملة : طرف الإصبع أو رأس الإصبع . البرد :
ماء الفهام يتجمد في الهواء البارد ويسقط على الأرض في صورة حبات .

وقوسٌ حاجبها من كلِّ ناحية
 وتنبُّلٌ مقلتها ترمي به كبدي (١)
 مدَّت مواشطها في كفِّها شركاً
 تصيد قلبي به من داخل الجسد
 أنيسةٌ لو رأتها الشمس ما طلعت
 من بعدِ رؤيتها يوماً على أحدٍ
 سألتها الوصلَ قالت : لا تُفَرِّ بنا
 مَن رام منّا وصالاً مات بالكدرِ
 فكم قتيلٍ لنا بالحب مات جوى
 من الغرامِ ، ولم يُبْدِ ولم يُعِدِ
 فقلتُ : أستغفر الرحمنَ من زللِ
 إنَّ الحبَّ قليل الصبر والجَلَدِ
 قد خلَّفتني طريحاً وهي قائمة :
 فأملوا كيف فِعْلُ الظلي بالأسدِ (٢)
 قالت لطيفِ خيالٍ زارني ومضى :
 بالله صفه ، ولا تنقص ولا تزدِ

(١) النبل : السهام .

(٢) الظلي : الغزال .

فقال : خلقتُـهُ لو ماتَ من ظمأٍ
وقلتِ : قف عن ورود الماء ، لم يَـرِدْ !
قالت : « صدقت » ، الوفا في الحب شيمته »
يا بَرْدَ ذاك الذي قالت على كبدي !^(١)
واسترجعت سألت عني ، فقبل لها :
ما فيه من رَمَقٍ ، دقتُ يداً بيدٍ
وأمرت لؤلؤاً من نرجسٍ ، وسقت
ورداً ، وعضت على العنّاب بالبرَدِ^(٢)
وأنشدت بلسان الحال قائلةً
من غير كُـرْمٍ ولا مَطْلٍ ولا مددٍ^(٣)
والله ما حزنت أختٌ لفقد أخٍ
حزني عليه ، ولا أمٌ على ولدٍ
إن يحسدوني على موتي ، فوا أسفي
حق على الموت لا أخلو من الحسدِ

(١) شيمته : خلقه وطبيعته .

(٢) العنّاب : واحدته عنّابة ، فاكهة من فصيلة النبقيات ، تشبه
حبة الزيتون ، وأجوده الأحمر الحلو . والقصود به شفتا الهبوبة . أما
البرَد فالمقصود به أسنانها الناصعة البياض .

(٣) المثل : التسميف والتأخير .

(فوز)

للعباس بن الأحنف

من أجل ما يروونه عنه أنه خرج مع الرشيد ذات مرة
إلى خراسان ، وكان الرشيد قد وعده أنه لن يغيب عن أهله
في بغداد ، لكن الغياب طال ، فاشتد به الشوق إلى أهله ،
واحتال هو بأبيات تصل إلى سمع الرشيد لعله يأمر له بالعودة :

قالوا خراسان أقصى ما يراى بنا
ثم القُفُولُ ، فقد جئنا خراسانا
مضى يكون الذي أرجو وآمله
أما الذي كنت أخشاه فقد كانا
ما أقدر الله أن يدني - على شَحَطٍ -
جيران دجلة من جيران « جيحانا » (١)

(١) ويرى البيت أيضا : سكان دجلة من سكان جيحانا .

يا ليت من تمنى عند خلوتنا
إذا خلا خلوة يوماً تمنانا
وتصل الأبيات إلى سمع الرشيد ، فيتأثر بها غاية التأثر ،
ويأذن لشاعره العباس بن الأسنف بالعودة إلى بغداد ..

رواية أخرى طريفة حكاه المسمودي في كتابه « مروج
الذهب » عن جماعة من أهل البصرة ، قال :

خرجنا نريد الحج ، فلما كنا ببعض الطريق ، إذا غلام
واقف على الهبة وهو ينادي : أيها الناس ، هل فيكم أحد من
أهل البصرة ؟ قال : فعدلنا إليه ، وقلنا له : ما تريد ؟

قال : إن مولاي لما به يريد أن يوصيكم . فلنا معه ، فإذا
شخصٌ ملقى على بعدٍ تحت شجرة لا يجير جواباً ، فجلسنا
حوله فأحسن بنا ، فرفع رأسه وهو لا يكاد يرفعه ضعفاً ،
وأنشأ يقول :

يا غريب الدار عن وطنه
مفرداً يبكي على شجته
كلما جدَّ البكاء به
دبت الأسقام في بدنه

ثم أغني عليه طويلاً ، فبينما نحن جلوس حوله إذ أقبل
طائر فوق على الشجرة وجعل يفرد ، ففتح عينيه وجعل
يسمع تغريد الطائر ثم أنشأ يقول :

ولقد زاد الفؤاد شجاً
طائرٌ يبكي على فتنه
شفه ما شفي ، فبكي
كلنا يبكي على سكه !

قال : ثم تنفس نفساً فاضت نفسه منه ، فلم نبرح من عنده
حتى غسلناه وكفناه وتولينا الصلاة عليه ، فلما فرغنا من دفنه
سألنا الغلام عنه فقال هذا العباس بن الأحنف .

* * *

فإذا تركنا هذه الروايات عن العباس وما أكثرها ، وانتقلنا
إلى ديوان شعره لفت نظرنا أنه ديوان كامل من شعر الحب ،
لا مكان فيه لأي غرض آخر من الأغراض التقليدية التي كانت
مألوفة في شعرنا العربي القديم ، إنه شاعر لا يمدح ولا يهجو
ولا يرثي ولا يفخر ، هو شاعر عاشق ، وعاشق فحسب ،
شهد له البحاري بأنه أغزل الشعراء ، وقصائده في حبيبته
فوز تنطق بعاطفة صادقة ، وشاعرية أصيلة ، ولغة شعرية
عذبة سائغة لا تكلف فيها ولا تصنع ، تنساب إلى الناس
رفيقة صافية ..

يقول العباس عن أميرته :

أميرقي ، لا تغفري ذنبي
فإن ذنبي شدة الحب

حدث قلبي دائماً عنكمو
حق قد استحييت من قلبي

ويصف زمن العاشق ، ووقع ساعاته وأيامه وشهوره في
في النفس ، فيقول :

اليومُ مثلُ المِمامِ ، حتى أرى
وجهك ، والساعة كالشهر

ماذا على أهلك أن لا يروا
عطراً ، وأنت العطر للعطر

أفسد قلبي شادن أحور
يسحر بالعينين والثغـر

لو كنت أدري أنه ساحر
علقت تعويذاً من السحر

ويبدع حين تصطرع في نفسه رغائب الحب وشهواته مع
ما ينبغي له من تعفف ووقار ، فيقول عن النظر الفاسق :

أتأذنون لصبري في زيارتكم
فعندكم شهوات السمع والبصر
لا يضر السوء إن طال الجلوس به
عفء الضمير ولكن فاسق النظر
ويقول العباس بن الأحنف عن العصيان الجميل ، العصيان
بالحب :

أستغفر الله إلا من مودتكم
فإنها حناتي يوم ألقاه
فإن زعمت بأن الحب معصية
فالحب أحسن ما يُعصى به الله !

يلفت النظر في شعر العباس بن الأحنف موسيقاه الآسرة ،
وإذا كان القدماء قد وصفوا الأعشى بأنه صنّاجة العرب ،
فإن العباس جدير بأن يسمّى صنّاجة الشعر العربي في العصر
العباسي كله ، لما تميّز به شعره من إيقاعات موسيقية عذبة
مطرّدة ، وأجراس حلوة متناغمة وسلاسة تجعل لشعره وقعا
طيبا في النفس والعقل معا ..

ثم يلفت النظر في شعره أيضاً ، هذه الشخصية الموصلة
الطريفة ، شخصية الشاعر ، وهي دائمة الحوار والأخذ والرد ،

والقصّ والسرد ، والتذكير - خلال القصائد - بأحداث مضت وذكريات وقعت وأيام تقضت ، مما يضيف على هذه القصائد جواً واقعياً ، وإطاراً من الصدق، يجعل النفس أكثر تقبلاً لها وانفتاحاً عليها ، وهو في قصائد حبه جميعها دائم التصريح بالشكوى ، دائم الأمل في الوصال ، دائم الاستعطاف عن ذنب لا يدريه ، دائم الحديث عن كتمان لم يستطعه ، فذاع الحب وشاع وتناقلته الرشاة والحواسد ..

وواضح من سيرة العباس بن الأحنف أنه رافق هارون الرشيد في حملاته على خراسان وأرمينيا ، وأنه كان رفيق الحاشية لطيف الطباع ، مفطوراً على الحب والغزل ، حتى لقد جعل شعره كله قصيدة حب متصلة ، وتقول كتب التراث إنه توفي سنة مائة واثنتين وتسعين من الهجرة وقيل بل سنة مائة وأربع وتسعين ، وإن يوم وفاته كان يوم وفاة إبراهيم الموصلي نديم الخلفاء والكسائي النحوي المعروف وهشيمة بن الخمارة فلما رفع الأمر إلى الرشيد أمر المأمون أن يصلي عليهم ، فأمر المأمون بتقديم العباس بن الأحنف ليصلي عليه أولاً ، فلما سئل عن سبب تقديمه له على الآخرين أنشد المأمون من شعره :

وسمى بها ناس فقالوا إنها
لهي التي تشقى بها وتكابد
فجحدتهم ليكون غيرك ظنهم
إني ليمجني الحب الجاحد

ثم قال : أليس من قال هذا الشعر أولى بالتقدمة ؟

والآن مع قصيدته « فوز » :

فوز

ألم تعلمي يا « فوز » أني معذب
بجكم ، والحين للمرء يجلب^(١)
وقد كنت أبكيكم يثرّب مرة^(٢)
وكانت منى نفسي من الأرض يثرّب^(٢)
أو ملّكم حق إذا ما رجعتو
أثالي صدود^(٢) منكمو وتجنب
فإن ساءكم ما بي من الصبر ، فارحموا
وإن سركم هذا العذاب ، فعذبوا
فأصبحت فيما كان بيني وبينكم
أحدث^(٢) عنكم من لقيت فيعجب

(١) الحين : الهلاك .

(٢) يثرّب : الاسم القديم للمدينة المنورة .

وقد قال لي ناس تحمل دلالها
 فكل صديق سوف يرضى ويفض
 وإني لأقل بذل غيرك فاعلمي
 وبخلك في صدري ألد وأطيب (١)
 فإني أرى من أهل بيتك نسوة
 شين لنا في الصدر نارا تلهب (٢)
 عرفن الهوى منّا فأصبحن حسدا
 يخبرن عنا من يحيى وينهب
 وإني ابتلاي الله منكم بخادم
 يبلغكم عني الحديث ويكذب
 ولو أصبحت تسمى لتوصل بيننا
 سمعت، وأدركت الذي كنت أطلب
 وقد ظهرت أشياء منكم كثيرة
 وما كنت منكم مثلها أرقب

(١) أقل : أبغض وأكره . بذل غيرك : عطاء غيرك ووصاله .

(٢) شين : أرقدن وأشعلن .

عرفت بما جرئتُ أشياء جثةً
ولا يعرف الأشياء إلا المُجربُ

* * *

ولي يوم شيعت الجنازة قصة
غداة بدا البدر الذي كان يحجب
أثرتُ إليها بالبنان فأعرضت
تبسمُ طَوَّراً ثم تزوي فتقطب (١)
غداة رأيتُ الهاشمية غدوةً
تهادى حواليتها من العين ورب (٢)
فلم أرَ يوماً كان أحسن منظرأ
ونحن وقوف وهي تنأى وتندب (٣)
فلو علمت « فوز » بما كان بيننا
لقد كان منها بعض ما كنت أرهب

(١) البنان : طرف الاصبع . تزوي فتقطب : تزوي ما بين حاجبيها
علامة الغضب والامتناء .

(٢) الربرب : القطيع أو السرب من بقر الرحش ، والمقصود به هنا
سرب من الحسان . العين : جمع عيناء ، وهي البقرة الوحشية (كانت
العرب تشبه الحسان بها بلها) .

(٣) تنأى : تبعد .

ألا جعل الله الفدا كلَّ حُرَّةٍ
 « لفوز » المتى إنَّني بها لمعذبٌ
 فما دونها في الناس للقلب مطلبٌ
 ولا خلفها في الناس للقلب مذهبٌ (١)
 وإنَّ تلك « فوز » باعدتنا وأعرضت
 وأصبح باقي حبلها يتقضَّب (٢)
 وحالت عن العهد الذي كان بيننا
 وصارت إلى غير الذي كنت أحسب (٣)
 ومان عليها ما ألاقى فربَّما
 يكون التلاقي والقلوب تقلَّب (٤)
 ولكنني والخالق الباري الذي
 يزارُ له البيت العتيق المحجب
 لأستمكن بالودَّ ما ذرُّ شارق
 وما تاح « قمرِي » وما لاح كوكب (٥)

-
- (١) مذهب : سبيل أو مذهب .
 (٢) يتقضَّب : يتقطع . حبلها يتقضَّب : أي يذهب ما بيني وبينها
 من ودِّ وعبة .
 (٣) حالت : تغيرت وتبدلت .
 (٤) تقلَّب : تتغير وتبديل من حال إلى حال .
 (٥) ذرُّ : بزغ ولبغ ولاح . شارق : أي لجسم في السماء . قمرِي :
 نوع من الحمام حسن الصوت .

وأبكي على فوز بعين سخيئة
وإن زهدت فينا ، نقول : سترغب^(١)
ولو أن لي من مطلع الشمس بكرة
إلى حيث تهوى بالمشي فتغرب
أحيط به ملكاً ، لما كان عدوها
لعمرك .. إني بالفتاة لمعجب^(٢)

وقد استطاعت الشاعرة العراقية الدكتورة عاتكة الخزرجي - في رسالتها للدكتوراه عن العباس بن الأحنف - أن تكشف النقاب عن سرّ محبوبته فوز ، وأن تثبت أنها غلية بنت المهدي أخت هارون الرشيد ، وأن العباس لم يستطع أن يبوح باسمها في شعره ، فرمز لها باسم «فوز» .

- (١) سخيئة : الباكية بالدموع الحارة .
(٢) عدوها : كلوا لها ومساوياً لقيمتها ومميراً عن تقديري وإعزازي لها .

[وحيد المغنية]

لابن الرومي

وهذه مغنية خلدها شاعر .

أما المغنية فهي « وحيد » أشهر مغنيات العصر العباسي
وأبعد من صيتاً وأكثرهن جالاً وفتنة ، اجتمع لها الصوت
الرخيم والحسن البديع ، فتمت صورتها على أحسن وجه لمن
يرى ولمن يسمع ..

وأما الشاعر فهو ابن الرومي ، أشهر شعراء العصر العباسي
كله ، وإن يكن أقل الشعراء حظاً من عناية التاريخ الأدبي
وإنصاف النقاد والدارسين قدامى ومحدثين ، حتى كان الكتاب
الذي ألّفه عنه الأديب الراحل عباس محمود العقاد دراسة
منهجية نفسية جامعة ، وضعت في مكانه من مسيرة الشعر
العربي ، وأنصفته من عنّت التاريخ وتجاهل المتأدبين .

وصلت لنا صورة ابن الرومي - الشاعر الفذ - في إطار
من لوحاته الشعرية البارة وقصائده الممتلئة فناً ذكياً وحياء

متدفقة ، وكان أقصى ما نقوله عنه كتب الأدب إنه شاعر
هجاء لم يسلم أحد من لسانه ، برع في وصف الأمور الدنيا
للحياة وشؤونها السوقية ، ألا ترون ابن المعتز - الخليفة
الشاعر - وهو يصف الهلال بأنه زورق من فضة قد أثقلته
حمولة من عنبر ، بينما يقنع ابن الرومي بوصف خباز يتفنن في
صنع رقاقتة على النار :

ما بين رؤيتها في كفه كرة
وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة
في صفحة الماء يرمى فيه بالحجر

ويروي البيت الثاني على هذه الصورة أيضاً :

إلا بمقدار ما تنداح دائرة
في لجة الماء يلقي فيه بالحجر

ولهذا ، فقد بقي ديوان ابن الرومي حتى يومنا هذا ، في
صورته الكاملة ، شبه مفقود أو مفقود ، اللهم إلا بضعة فصول
منه حققها ونشرها الأديب الراحل كامل كيلاني ، بالرغم من
أنه - كما يقول الرواة - أطول ديوان محفوظ في الشعر العربي
كله ، لكن إهمال القدماء له وحققهم عليه وضيقهم بهجائه
المقذع - الذي يحتل مساحة غير يسيرة من الديوان - فضلاً
عن أن نسخة الديوان الكاملة لم تكن ميسورة في بعض البلاد

العربية التي كان لها قصب السبق في إعادة طبع بعض الدواوين وتحقيقها - كل ذلك جعل شعره غير مجموع بين أيدينا حتى اليوم .

يقول ابن خلكان يصف ابن الرومي ويقسده : « هو صاحب النظم العجيب والتوليد الغريب ، يفوص على المعاني النادرة فيستخرجها من مكانها ويبرزها في أحسن صورة ، ولا يترك المعنى حتى يستوفيه إلى آخره ولا يترك فيه بقية » .

ويقول عنه العقاد : « الطبيعة الفنية هي الطبيعة التي بها يقظة بيّنة للإحساس بجوانب الحياة المختلفة . وتنام هذه الطبيعة أن تكون حياة الشاعر وفنه شيئاً واحداً لا ينفصل فيه الإنسان الحي عن الإنسان الناظم ، وأن يكون موضوع حياته هو موضوع شعره وموضوع شعره هو موضوع حياته ، فدويانه هو ترجمة باطنية لنفسه يخفي فيها ذكر الأماكن والأزمان ولا يخفي فيها ذكر خالجة ولا هاجسة مما تتألف منه حياة الإنسان .

ثم يقول :

« وابن الرومي واحد من أولئك الشعراء القليلين الذين ظفروا من الطبيعة الفنية بأوفى نصيب . فمن عرف ابن الرومي الإنسان حقاً عرفانه ولم ينقصه منه إلا الفضول ، والغريب مع هذا أن ابن الرومي الشاعر هو ابن الرومي الذي لم يُعرف

بعد وإن عُرفت له مزايا وثالث حسنات له حقها من الإعجاب .

* * *

ولد أبو الحسن علي بن العباسي بن جريج الرومي سنة إحدى وعشرين ومائتين من الهجرة ، من أصل رومي غير عربي ، فجدده جريج أو جورجيس : يوناني ، وأمه من أصل فارسي ، أما أبوه فقد مات عنه وهو حدث صغير .

ويقولون إن حياته اكتنفها الشقاء واليأس والهم من كل جانب ، فقد رزق ابن الرومي ثلاثة أبناء ماتوا جميعاً في طفولتهم ، ورثهم بأبلغ وأفجع ما رثى به والد أبنائه ، ثم لحقت بهم زوجته فتتت بها مصائبه وأحزانه .

والذين يحاولون أن يقدموا له صورة وصفية يقولون إنه كان صغير الرأس مستدير أعلاه ، أبيض الوجهه يخالط لونه شحوب في بعض الأحيان وتغيير ، ساهم النظرة ، بادياً عليه وجوم وحيرة .. نجسلاً ، أقرب إلى الطول ، كث اللحية ، بادر إليه الصلع والشيب في شبابه ، وأدركته الشيخوخة الباكرة فاعتل جسمه وضعف نظره وسمعته ، ثم ما لبث - في شيخوخته - أن تبدلت ملامحه وتقوس ظهره ولحق به ما لا بد أن يلحق بثله من تغيير نتيجة الأسقام والهموم وقوالي الهم .

ويؤخذ من الروايات الموثوق بها أنه توفي سنة أربع وثمانين ومائتين من الهجرة ، وأنه أدرك في حياته ثمانية خلفاء من بني العباس هم : الواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد والمعتضد الذي توفي بعد ابن الرومي ببضع سنوات. والمتصفح لأشعار ابن الرومي - وما أكثرها وأحفلها بسمات المبقرية والتفنن - يدرك على الفور أنه كان شاعراً محباً للحياة ، منغمساً في ظواهرها وجوهرها ، ملتقطاً لكل ما فيها من صور وأشكال ، مشغصاً لمعانيها ومدركاً لها ، وكانت عبادة الجمال - وهو أسمى تعبير عن الحياة - دأبه وديدنه .

* * *

هذا النهم بعبادة الجمال ، وحب الحياة ، هو الذي جعله يهوى مغنية عصره الذائعة الصيت ، الفاتنة الجمال ، ويهيم بها وحبداً وعشقا ، وترتجف بهذا الحب ريشته الساحرة الملهمة ، فيفتن في رسم لوحته الشعرية الفريدة عن « وحيد » .

والقصيدة واحدة من عيون قصائده، تنطق بقدرته الخارقة على التصوير والتجسيم والتجسيد ، والاستقصاء البارع اليقظ في تناول أدق التفاصيل ، وذائته المتفردة كشاعر ، تلك التي تتفجر بها كلماته وموسيقاه وقوافيه .

ويصل ابن الرومي إلى ذروة الإبداع الشعري عندما يرسم بريشته المقتدرة صورة وصفية لوحيد وهي تغشي ، هنا نجد

لونساً من التناول الشعري لا مثيل له في شعرنا العربي كله ،
بينما يرسم الشاعر العاشق كل خالجة من خواجها وكل حركة
من حركاتها الصوتية هدوءاً وانطلاقاً ، بسطاً وقبضاً .

وفي ختام هذه اللوحة الشعرية الفاتنة ، يكشف ابن الرومي
النقاب عن مدى حبه لوحيد ، وعمق تعلقه بها ، فهو لا يستمع
لنصيح يلومه في هواها ، بعد أن تملكه هذا الهوى وسد عليه
كل الاتجاهات والأبعاد ؛ عن يمينه وعن شماله وقدامه وخلفه ..
فأين منه المفر ؟

إنه حب من طراز فريد .. فهو حب دائم التجدد ،
دائم المنح والعطاء .

* * *

يقول ابن الرومي :

فار الحسن :

يا خليلي ، تيممتني وحيب
ففؤادي بها معشى عييد^(١)

(١) تيممتني : ملكتني وأسرتني بحبها . المعشى : الذي يكلف بها
لا قبل له به . العييد : من هداه العشق وأضناه الحب .

عادة زانها من الغصن قد
 ومن الظبي مقلتانٍ وجيد^(١)
 وزهاما من فرعها ومن الحد
 ين ، ذاك السواد والتوريد^(٢)
 أوقد الحسن ناره في وحيد
 فوق خد ما شانه تخديد^(٣)
 فهي برد بخدما وسلام
 وهي للعاشقين جها جهيد
 لم تضر قط وجهها وهو ماء
 وتذيب القلوب وهي حديد^(٤)
 ما لما تصطليه من وجنتها
 غير ترشاف ريقها تبريد^(٥)
 مثل ذاك الرضاب أطفأ ذاك ال
 وجد ، لولا الإماء والتصريد^(٦)

(١) القد : القوام . الجيد : العنق . مقلتان : عينان .

(٢) فرعها : شعرها . التوريد : الاحرار .

(٣) تخديد : اضطراب وتشنج ناتج عن المزال .

(٤) لم تضر : لم تؤذ .

(٥) تصطليه : تعاني من حرارته .

(٦) التصريد : المعجز عن بنوخ الري لقله ما يرقى به .

وصف وحيد :

وغرير بحسبها قال : صفها !
قلت : أمارات ، هين وشديد
يسهل القول إنها أحسن الأشياء
و 'طرآ' ، ويعسر التحديد (١)
شمس دجن ، كلا المنيرين - من شم
س وبدر - من نورها يستفيد (٢)
تتجلى للناظرين إليها
فشقي بحسبها وسعيد
ظبية تكن القلوب وترعاً
ها ، وقمرية لها تغريد (٣)

وحيد وهي تغني :

تغني ، كأنها لا تغني
من سكون الأوصال ، وهي تجيد

(١) 'طرآ' : جميعاً .

(٢) دجن : ظلام .

(٣) قمرية : حمامة حسنة الصوت .

لا تراها هناك ، تحفظ عين
 لك منها ، ولا يدرك ويرد^(١)
 من هدوء ، وليس فيه انقطاع
 وسجوة ، وما به تبلد^(٢)
 مد في شاور صوتها نفس^(٣) كما
 في ، كأنفاس عاشقها مديد^(٤)
 وأرق الدلال والغنج منه
 وبراه الشجا ، فكاد يبيد^(٥)
 فتراه يموت طوراً ويحيى
 مستلذ بسيطه والنشيد
 فيه وشي ، وفيه حلبي من النذ
 سم مصوغ يختال فيه القصيد^(٦)
 طاب فوها وما ترجع فيه
 كل شيء لها بذاك شهيد^(٦)

-
- (١) يدرك الوريد : يتلى دماً نتيجة الجهد والمثقة .
 (٢) السجوة : السكون واللبوة .
 (٣) شار صوتها : قبة صرتها وعظمته .
 (٤) الغنج : الدلال . الشجا : الحزن وانشغال البال .
 (٥) وشي : حلبة وتزيين .
 (٦) فوها : لها . ترجع : تعيد التردد .

تَغَبُّ يَنْقَعُ الصدى ، وغناء
 عنده يوجد السرور الفقيد (١)
 فلها - الدهر - لائم مستزيد
 ولها - الدهر - سامع مستعيد
 في هوى مثلها يخف حليم
 راجح حلمه ، ويفوى رشيد (٢)
 ما تعاطي القلوب إلا أصابت
 بهواما منهن حيث تريد
 وتز العزف في يديها مضاه
 وتكر الرجف فيه سهم شديد
 وإذا أنبضته للشرب يوما
 أيقن القوم أنها ستصيد (٣)
 « معبد » في الغناء وابن « سريج »
 وهي في الضرب « زلزل » و « عقيد » (٤)

(١) التغب : الغدير البارد المساء لم تصبه الشمس . ينقع الصدى :
 يبل العيش ويروي الظما .

(٢) يخف : يطيش عقله .

(٣) الشرب : جمع شارب . أنبضته : مددته .

(٤) معبد : ابن سريج وزلزل وعقيد : من مشاهير المغنين والمعارفين
 في العصر العباسي .

عيبُها أنها إذا غشتِ الأحرارَ
رَ ظَلُّوا وهمُ لديها عيبُ
واستزادت قلوبهم من هواها
يراقامها ، وما لديهم مزيد^(١)

التوحيد في الحب :

وحسان عرض لي ، قلت : مهلاً
عن وحيد ، فحقها التوحيد
حسنها في العيون حسنٌ وحيدٌ
فلها في القلوب حبٌ وحيدٌ
ونصيح يلومني في هواها
ضلٌ عنه التوفيق والتسديد
لو رأى من يلوم فيه لأضحى
وهو لي المسترث والمستزيد
ضلّةٌ للفؤاد يحنو عليها
وهي تزهو - حياته - وتكيد^(٢)

(١) رقى : جمع رقية ، ما له تأثير السحر .

(٢) ضلة : منية وأمل .

سحرته بمقتلهم — فأضحت
 عنده والذم من — حيد
 'خلقت فتنة' ، غناءً وحسناً
 ما لها فيها جميعاً ندید^(١)
 فهي 'نعمى' ، يمیدُ منها كبيرُ
 وهي بلوى ، يشيب منها وليد^(٢)
 لي — حيث انصرفتُ منها — رفيقُ
 من هواها — وحيث حلّت قعيدُ
 عن يميني ، وعن شمالي ، وقدأ
 مي وخلفي ، فأين عنه أحيد
 سدّ شيطان حبّها كلُّ فجّ
 لمنّ شيطان حبّها لمريد^(٣)

(١) ندید : مثل ونظير .

(٢) يمید : يزلزل ويهتز .

(٣) فجّ : طريق . مرید : الخبيث الشرير .

جمال صوت وصورة :

ليت شعري إذا أدام إليها
كرة الطرف ، مبدئ ومعيد^(١)
أهي شيء لا تسأم العين منه ؟
أم لها كل ساعة تجديد
بل هي العيش لا يزال متى استه
رض يُملئ غرائباً ويفيـد
منظره ، مسمع ، معانٍ من الله
ور ، عتاد لما يحب عتيد^(٢)
لا يدبّ الملل فيها ، ولا ينقـد
ض من تعقد سحرها توكيد
حسنها في العيون حسن جديد
فلها في القلوب حب جديد

(١) كرة الطرف : إعادة النظر والتأمل .

(٢) عتاد : زخيرة ومتاع .

شكوى واستعطاف :

أخذ الدهر يا وحيد لقلبي
منك ، ما يأخذ المذيل المعيد ^(١)
حظٌ غيري من وصلكم قرّة العي
نـ ، وحظّي البكاء والتسويد
غير أني مُعلل منك نفسي
بعيداتٍ خلاهن وعيسد ^(٢)
ما توالين نظرةً منك موت
لي يميت ، ونظرةً تخليد
نتلاقى ، فلحظةً منك وعد
بوصال ، ولحظةً تهديد
قد تركت الصّحاح مرضى يمدو
نَ "لحولاً" وأنت "خوطة" يمد ^(٣)

(١) المذيل : المغير القلب الأسوال .

(٢) عدات : جمع عدة ، وعد أو أمنية .

(٣) خوط : القمص الناعم .

والهوى لا يزال فيه ضعيف
 بين الحاظيه صريح^(١) جليد
 ضافني حبك الغريب ، فالوى
 بالرقاد النسيب^(٢) ، فهو طريد^(٣)
 عجباً لي ، إن الغريب مقيم^(٤)
 بين جنبي^(٥) ، والنسيب شريد^(٦)
 قد مللنا من ستر شيء مريح
 نشتهيه ، فهل له تجويد^(٧) !
 هو في القلب ، وهو أبعد من نج
 مـ الثرى ، فهو القريب البعيد !

* * *

-
- (١) جليد : ذو صلابه وجلند .
 (٢) ضافني : أمالي واستهدفتني . ألقى به : ذهب به وعصف به .
 (٣) تجريد : انكشاف وشهور .

أراك عصي الدمع

لأبي فراس الحمداني

وهذا نموذج للشعر العربي الأصيل إذا ما صدر عن وجدان عاشق فارس ، يعتز بنسبه العربي العريق ، الذي ينتهي إلى قبيلة « تغلب » العربية التي اشتهرت بالنخوة والفروسة ، ونسري في عروقه دماء عربية أصيلة جعلته دائماً الفخر والاعتزاز بنفسه ومكانته ، ولم لا ؟ ، وهو الشاعر الفارس الأمير وابن عم الأمير سيف الدولة أمير حلب ، أشهر أمير عربي خلّده شاعر العربية الكبير « المتنبي » في سيفياته التي قالها وهو في جواره ، يصف وقائعته ، ويسجل أحداث زمانه .

ذلكم هو أبو فراس الحمداني ، ولد بالموصل سنة تسماية واثنتين وثلاثين ميلادية ، وقتل أبوه وهو طفل صغير ، فرباه ابن عمه وزوج أخته سيف الدولة ، وهو الفارس الأديب ، فنشأ أبو فراس على الفروسية والأدب ، ثم قلده سيف الدولة الإمارة

على «منبج وحران» وأعمالها وهو في السادسة عشرة من عمره واصطحبه معه في معاركه ، وما كان أكثرها ، مع الروم الطامعين في الوطن العربي الذي تفتت وانقسم بالخلال الدولة العباسية وانقسامها على نفسها الى إمارات ومناطق نفوذ . وقدّر لدولة الحمدانيين ولسيف الدولة أن يكونا القلعة الوحيدة الصامدة في وجه الدولة البيزنطية ، وأن يكونا الدرع الواقية للشعر العربية في مواجهة أعظم دول ذلك الزمن .

ويؤسّر أبو فراس في إحدى معارك سيف الدولة مع الروم ، وينقله الروم إلى القسطنطينية ، ويظلّ في الأسر أربع سنوات ، ويقال بل هي سبع سنوات ، وتوالت رسائله لسيف الدولة ، وقصائده الباكية المستعطفة يطلب فيها مفاداته . ويختلف المؤرخون في سبب بطل سيف الدولة وتراخيه في مفاداته . يقول البعض هي شواغله ومسؤولياته والأحداث المتتالية التي مرت بها حلب ، والبعض الآخر يحاول أن يوحى بأنه كانت هناك منافسة خفية بينه وبين سيف الدولة ، وأن سيف الدولة كان يخشى على إمارته من ابن عمه ، وهو رأي لا تقوم عليه شواهد أو أدلة قوية ، وثمة من يقول إن بلاط سيف الدولة شهد مؤامرة دبرها بعض الحاقدين على أبي فراس أوغرت صدر سيف الدولة عليه فلم يسرع إلى مفاداته ..

على أيّ ، لقد أطلق سراح أبي فراس بعد أن اقتداه ابن عمه ، وولاه سيف الدولة إمارة حمص ، ثم مات بعد عا.

واحد . وفجأة قامت الحرب بين أبي فراس وأمير حلب
الجديد : أبي المعالي بن سيف الدولة .. وابن أخت أبي فراس
نفسه .. وتنتهي الحرب بقتل أبي فراس قرب حصص سنة
تسعمائة وثمانين وستين ، وينتهي معها طموحه وفخره
وفروسيته ..

* * *

ولأبي فراس ديوان من الشعر القوي الجزل، العذب الأنغام،
الصادق العاطفة والتصوير ، يسجل فيه تاريخ حياته ويصور
فروسيته ويفخر بآثر أسرته ، ويثني على سيف الدولة
والعلوين .. ومن بين قصائد هذا الديوان اشتهرت رومياته
أي القصائد التي قالها وهو في الأسر، وهي تكشف عن مدى
شكواه وعمق حزنه ورثائه لأقربائه الذين فقدهم أثناء الأسر
والغياب عن الوطن خاصة أمه .

لكن قصيدة من قصائد أبي فراس يتاح لها من الذبوع
والشهرة ما لا يتاح لبقية قصائده ، تلك هي مطولته « أراك
عصي الدمع » التي تصوّر أدق تصوير وجدان هذا الشاعر
الفارس، الذي يذوب رقة وعاطفة ولكن في اعتزاز وشموخ ،
ومن خلال نفس أبيه ترفض كل ذلة ، ولا تعرف إلا الإباء
والجرأة والإقدام . فالشاعر الذي يذوب وجداً وهياماً في
مواقف الحب والصبابة ، لا يخفي رأسه ، ولا يدوس على
كرامته ، لكنه دائماً شامخ أبي ، شأنه في حروبه ومعاركه

مع الخصوم والأعداء .. هذه القصيدة التي اشتهرت عندما
دخلت ساحة الغناء العربي ، ورددها الألوف ، معجبةً بمطابقة
الشاعر الفارس ، وكبريائه وشعنه ، وفنه الشعري المقتدر ،
وصياغته العذبة القوية .. هي التي سنتوقف عندها الآن ،
قراءةً وتذوقاً وتأملًا ..

* * *

يقول أبو فراس الحمداني ..

استهلل وتقدّم :

أراك عصيّ الدمع شيمتك الصبرُ
أما للهوى نهيّ عليك ولا أمرُ^(١)
بلى ، أنا مشتاقٌ وعندي لوعةٌ
ولكنّ مثلي لا يذاع له سرُ
إذا الليل أضواني بسطت يد الهوى
وأذلتُ دمعاً من خلّائه الكبيرُ^(٢)

(١) شيمتك : طبيعتك وخلقتك .

(٢) أضواني : عذبني وشجاني . خلّائه : جمع خليقة وهي الطبع
والصفة المميّزة .

تكاد تضيء النار بين جوانحي
إذا هي أذكتها الصباة والفكر^(١)
معلتي بالوصل والموت دونه
إذا بت^٢ ظمآنًا فلا نزل القطر^(٢)
حفظت^٣ وضيعت^٣ المودة بيننا
وأحسن^٣ من بعض الوفاء لك الغدر
وما هذه الأيام إلا صحائف
لأحرفها ، من كفا^٣ كاتبها ، بشر^٣

هي والوشاة :

بنفسي من الغادين في الحبي غادة
هواي لها ذنب^٣ ، وبهجتها عذر
تروغ إلى الواشين في^٣ ، وإن لي
لأذئابها عن كل^٣ واشية وقر^(٣)

(١) أذكتها : أشعلتها .

(٢) معلتي بالوصل : من تبسط لي الآمال في الرسل . القطر : المطر .

(٣) تروغ : تميل وتستمع . وقر : صمم .

بدوّتْ وأهلي حاضرون ، لأنني
أرى أن داراً لست من أهلها قفر^(١)
وحاربتْ قومي في هواك ، ولأنهم
ولايائي ، لولا حبك ، الماء والحر
فإن يك ما قال الوشاة ولم يكن
فقد يهدم الإيمان ما شئت الكفر

بين الشاعر والحبشية :

وفيتْ وفي بعض الوفاء مذلة
للإنسانة في الحي شيمتها القدر^(٢)
وقورٌ ، وربعان الصبا يستفزها
فتأرنُ أحياناً كما أرنَ المهر^(٣)

(١) بدوت وأهلي حاضرون : اغتلت حياتي عن حياة قومي ،
انصرفت عنهم وملت اليك .

(٢) شيمتها : طبيعتها وخلقتها .

ويرى البيت أيضاً : « لثانث » في الحي شيمتها القدر .

(٣) أرن : نشط وروح .

تسألني : مَنْ أنت ؟ وهي عليمة
وهل بفتى مثلي على حاله 'نكسر'
فقلت لها : لو شئت لم تتعشني
ولم تسألني عني ، وعندك بي خبر (١)
فقلت : لقد أزرى بك الدهر بمدنا
فقلت : معاذ الله بل أنت لا الدهر (٢)
وما كان للأحزان لولاك مسلك
إلى القلب ، لكن الهوى لليلي جسر
وتهلك بين الهزل والجد مهجة
إذا ما عداها البين عذبتها الهجر (٣)
فأيقنت أن لا عز بعدي لعاشق
وأن يدي بما عقلت به صفر (٤)
وقلّبت أمري لا أرى لي راحة
إذا البين أنساني ألح بي الهجر

(١) التعتت : طلب المشقة .

(٢) أزرى به : هابه ووضع من قيمته ومزله .

(٣) البين : الفراق والبعد .

(٤) صفر : خاوية فارغة .

فعدت إلى حكم الزمان وحكمها
لها الذنب لا تجزى به ولي العذر

فخر واعتزاز بالنفس :

فلا تنكريني يا ابنة العم ، إنه
ليعرف من أنكركه البدو والحضر

ولا تنكريني ، إنني غير مُنكر
إذا زلت الأقدام ، واستنزل الذعر

وإني لجرار لكل كتيبة
معوّدة أن لا يخل بها النصر

وإني لنزال بكل مخوفة
كثير إلى نزالها النظر الشؤر^(١)

فأظما حق تروي البيض والقنا
وأسب حق يشبع الذئب والنسر^(٢)

ولا أصبح الحي الخلف بفارة
ولا الجيش ، ما لم تأته قبلي النذر

(١) النظر الشؤر : النظر بجانب العين مع الاعراض أو الغضب .

(٢) البيض : السيوف . القنا : الرماح . أسب : أجوع .

ويا ربّ دارٍ لم تخفني منيعه
 طلعتُ عليها بالردى أنا والفجرُ
 وحيّ رددت الخيل حق ملكته
 هزيمًا ، وردّتي البراقع والخُمر^(١)
 وساحبة الأذيال نحوي لقيتها
 فلم يلقها جافي اللقاء ولا وعر
 وهبتُ لها ما حازه الجيش كله
 ورحلت ولم يكشف لأبياتها سر
 ولا راح يطغيني بأثوابه الفنى
 ولا بات يثليني عن الكرم الفقر^(٢)
 وما حاجتي بالمال أبني وفوره
 إذا لم أصن عرضي فلا وفر الوقر

(١) الحمر : جمع « خار » وهو غطاء الرأس للمرأة .

(٢) يثليني : يرؤي ويدقمني .

قصة الأسر :

أسرتُ وما صغي بعُزْلٍ لدى الوغى
ولا فرمي مهرٌ ولا رُبُّه غِشْرٌ ١١
ولكن إذا حُمّ القضاء على امرئٍ
فليس له بَرٌّ يقيه ولا بحر
وقال أصيحابي : الفرار أو الردى ؟
فقلت : هما أمران أحلاهما مرٌ
ولكنني أمضي لما لا يعينني
وحسبك من أمرين خيرهما الأسر
يقولون لي رِبت السلامة بالردى
فقلت : أما والله ، ما تألني خسر
وهل يتجافى عني الموت ساعة
إذا ما تجافى عني الأسر والضر ؟
هو الموت فاختر ما علا لك ذكره
فلم يمت الإنسان ما حييَ الذكر

(١) العُزْل : جمع أعزل ، الذي لا سلاح معه . الغِشْر : الجاهل ،
غير المحروب .

ولا خير في دفع الردى بمذلة
كما ردها يوماً بسوءته عمرو^(١)
ينثون أن خلّوا ثيابي ، وإنما
عليّ ثيابٌ من دماهمو حمز
وقائم سيفٍ فيهمو اندقّ نصله
وأعقاب رمحٍ فيه قد حطّم الصدر

عودة إلى الفخر :

سيدكرني قومي. إذا جدّ جدّهم
وفي الليلة الظلماء يفقد البدر
فإن عشتُ ، فالطعن الذي يعرفونه
وتلك القنا والبيض والضمير الشقر^(٢)
وإن متُّ فالإنسان لا بد ميّت
وإن طالت الأيام وانفسح العمر^(٣)

(١) السوءة : القملة القبيحة التي تجلب المذلة والعار .

(٢) القنا : الرماح . البيض : السيوف . الضمير الشقر : الجياد
الضامرة الشقراء اللون، كناية عن سرعتها الفائقة وكرم عنصرها .

(٣) انفسح العمر : امتدّ الأجل .

ولو سدّ غيري ما سددت اكتفوا به
وما كان يغلو الثبر لو نفق الصفر^(١)
ونحن أناس لا توطئ بيننا
لنا الصدر دون العالمين أو القبر^(٢)
تهون علينا في المعالي نفوسنا
ومن يخطب الجبناء لم يغلبها المهر .
أعزّ بني الدنيا وأعلي ذوي العلا
وأكرم من فوق التراب ولا فخر^(٣)

* * *

-
- (١) الثبر : الذهب . الصفر : النحاس .
(٢) الصدر : الصدارة والرئاسة والسيادة .
(٣) من فوق التراب : الناس جميعاً .

يا ظبيسة البسان

للشريف الرضي

لا يذكر الشريف الرضي إلا ويسرع إلى البال قوله :

ولقد مررتُ على ديارهمو
وطاولُها بيد البلى تَهْبُ

فوقفت حق ضجُّ من كَلَبِ
نِضْوِي ، ولجَّ بعذلي الرّكب

وقلّست عيني ، قد خفيت
عني الطلول تلفت القلب

ويستحضر الخيال هذه الصورة الفريدة في شعرنا العربي القديم ، صورة من يمرّ على آثار أحبائه بعد رحيلهم ، وتخفي الطلول من أمام عينه ، ولا تستطيع العين أن تريا بعد شيئاً ، هنا يتلفت القلب ، فتتمد دائرة البصر ، ويبصر القلب بعد أن عجزت العين .

والشريف الرضي أحد الأصوات الكبيرة في قافلة شعراء
العربي ، صوت له تفرده وأصالته وتمايزه ، وله أيضاً جلاله
وجماله وعذوبته وتدقيقه ، واقتداره الفني الذي
بتكيه على حس مرهف ، ووجدان ذكي ، وقلب كبير
متفتح .

تقول عنه كتب التراث إنه كان مهيباً بالغ الاعتداد
بشخصيته ، وكنيته أبو الحسن ، وقد سمي الشريف الرضي
لأنه كان نقيب الأشراف ، ينتهي نسبه إلى الحسين بن علي
ابن أبي طالب ، وهو صاحب الفضائل الشائعة والمكارم
الذائعة . كما كانت تسند إليه إمارة الحج والمظالم ، حججاً بالناس
مرات ، وكان أحد علماء عصره في الدين واللغة والأدب .

ويقول عنه القدماء إنه أشعر قريش ، لأن المجيد منهم
ليس بكثير والمكثر ليس بمجيد ، أما هو فقد جمع بين الإكثار
والإجادة .

ونطالع في شعره ما يملؤنا يقيناً بأنه كان عزيز النفس
رفيع الهممة .. يقول مخاطباً القادر بالله الخليفة العباسي
(ولنضع في اعتبارنا أن الشريف الرضي كان نقيب المطالبيين
نسبة إلى آل طالب المطالبيين بالخلافة) :

عظفاً ، أمير المؤمنين ، فإننا
في دوحة العلياء لا نتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت
أبدأ ، كلانا في المفاخر معرق
إلا الخلافة قدمتك ، فإنني
أنا عاطلٌ منها وأنت مطوق

'ولد الشريف الرضي عام ثلاثمائة وتسعة وخسين من
الهجرة ، وتوفي عام أربعمائة وستة . وخلال سنوات عمره
السبع والأربعين، ترك الشريف ديواناً شعرياً ضخماً في جزأين،
ومصنفات عدة ، أبرزها : المقتضب في القرآن . مجازات
الآثار النبوية . نهج البلاغة للإمام علي . تلخيص البيان عن
مجازات القرآن . الخصائص . الحسن من شعر الحسن (مختارات
من شعر ابن الحجاج) . أخبار قضاة بغداد . ورسائل الشريف
الرضي في ثلاثة مجلدات . وكتاب سيرة والده .

أما كيف ترك لنا نقيب الأشراف ، ونقيب الطالبين
الشريف الحسين شعراً في الغزل كأرق وأعذب ما يكون
الشعر ، فهذا سؤال تكشف إجابته عن حقيقة هذا الشاعر
الكبير الذي لم يطمس النشاط الديني والشمعي شاعريته أو
فنه .. ولكأنني به يتفنن في إخفاء عواطفه ومشاعره
- حفاظاً على مكانته الدبلوماسية ومنزلته بين قومه - فيأبى

شعره إلا أن يفضحه ، ويكشف الحفيّ المستور من أسرارهِ
وهواجس نفسه ونبضات قلبه ، وإلا فكيف قدّر له أن
يقول عن حقيقة الشوق :

أقول - وقد أرسلتُ أول نظرة -
ولم أرَ من أهوى قريباً إلى جنبي
لئن كنتَ أخليتَ المكان الذي أرى
فهيئاتَ أن يخلو مكانك من قلبي
وكنتُ أظنُّ الشوق للبعد وحده
ولم أدرك أن الشوق للبعد والقرب
خلا منك طرفي ، وامتلا منك خاطري
كأنك من عيني نُقلت إلى قلبي

وكيف استطاع أن يعبر عن « الحنين » في هذه الصورة
الشعرية الغريفة ، العذبة الصياغة ، الجميلة الجرس والأداء :

أحسنُ إلى لقائك كل يوم
وأسأل عن إيابك كل وقت
وأذكر ما مضى ، فيفيض صبري
وتنفر عبرتي ، ويروح صمتي
ولي قلب إذا ذكر التـلـلـاقـي
تظلم من يد البين المشت

بل كيف ذاب رقة ووجدأ حين قال :

يا مقلقي ، قلقي عليـكا
وأظنـه ذني إليـكا
أنت الشفيق فلو جنب
ت ، لما أخذت على يديـكا
أميتـ ثالث ناظريـ
فكيف أقـنـى ناظريـكا
وكفـاك أني لست أعـ
قدـ خنـصري إلا عليـكا

والتأمل في شعر الشريف يلاحظ على الفور حرصه على
تأكيد معنى العفاف في غزليته ، وإن تكن رغبات نفسه
الدفينة وأشواقه الحري ، وعواطفه الجاححة المشوبة ، تتنـزى
من خلال تحفظاته ، وكيف ينسى أنه أمير الحج ونقيب
الأشراف والقاضي الذي ينتظر في المظالم والمرشح لإمارة
المؤمنين ... كيف ينسى هذا كله وهو ينقل إلينا مثلاً حديث
المضاجع فيقول :

خلونا فكانت عفة لا تعفف
وقد رفعت في الحي من الموانع

سلوا مضجعي عني وعنهما ، فإننا
رضينا بما يُخبرن عنا المضاجع

ولد الشريف الرضي بعد وفاة أبي الطيب المتني بخمس
سنوات ، وتلقى دراساته الأولى على أيدي أساتذة شديدي
الإعجاب بالمتني ، ولم يشهد في صباه أو شبابه حلقة من حلقات
الدرس أو محفلاً من محافل الأدب إلا ولمس فيه الإعجاب
بالمتني والحديث عن شعره ، ومن هنا كان إعجابه الداخلي به ،
وترسّنه لخطاه ، واقتفاؤه لآثاره ، ثم معارضاته لأشهر
قصائده ، ووقوعه على الكثير من معانيه وعباراته ، ولكن
في خفة وذكاء ورشاقة ، ودون أن يُنتهم بالسرقة أو النقل .

بالإضافة إلى هذا ، يطالعنا في شعر الشريف أيضاً صياغة
نقية ، مصقولة ، خالية من الشوائب ، بريئة من التكلف ،
ويقول القدماء إنه كان عاكفاً على تهذيب شعره وتنخل ألفاظه
وصيانة ديباجته من عيوب التعبير أو سقطات اللغة أو ضحالة
المعاني وركاكة الصور وابتذالها . فجاء شعره - على كثرت -
مستوياً ، مماثل القمم والمرتفعات ، معبراً عن حياته المليئة
بالانفعالات والمواقف المشحونة ، لذا كثر شعره في
الأنفاس والفروسية والطموح والتمدح بشرف الآباء والفخر
بأجداده العظام والشكوى والعتاب ، والحب والغزل ،
والبكاء على الأهل والأسرة ، ووصف تقلبات الزمان إلى ذكرى

الحسين في مأساة عاشوراء ، إلى عاطفة الصداقة فيما كان بينه وبين أصدقائه من الإخوانيات العامرة الحارة .

ويكفيه فخراً ، أنه من بين القلة القليلة من شعرائنا العرب ، الذين لم يقبلوا المال من أحد ، ولا اتخذوا شعرهم وسيلة أو أداة للتكسب المادي ، فكانت علاقاته مع الخلفاء والملوك والأمراء علاقات ود وصداقة ، واحترام متبادل ، لذا فقد عرفت له عندهم حرمة وهيبة ، ولقّبوه بالرضي ذي الحسين .

والآن إلى قصيدته الرقيقة : يا ظبية البان .

يا ظبية البان

يا ظبيّة البان ، ترعى في خائله
ليهنك اليوم أن القلب مرعاك^(١)
الماء عندك مبذول لشاربه
وليس يرويك إلا مدممي الباكي

(١) البان : شجر معتدل القوام ورقه لين كالصفصاف ، واحدته البانة ، ليهنك : ليهنك ، خففت الحمزة .

هَبَّتْ لَنَا مِنْ رِيَّاحِ « الْغُورِ » رَائِحَةٌ
بَعْدَ الرُّقُودِ عَرَفْنَاهَا بِرِيَّائِكَ ^(١)
ثُمَّ انْتَشَيْنَا إِذَا مَا هَزَّتْنَا طَرْبُ
عَلَى الرَّحَالِ ، تَعَلَّنَا بِذِكْرِكَ
سَهْمِ أَصَابِ ، وَرَامِيهِ بِذِي سَلَمِ ،
مِنْ بِالْعِرَاقِ ، لَقَدْ أَبْعَدْتَ مَرَمَاكَ ^(٢)
حَكَّتْ لِحَاضِكَ مَا فِي الرَّثَمِ مِنْ مَلْحِ
يَوْمِ اللَّقَاءِ ، وَكَانَ الْفَضْلُ لِلْحَاكِي ^(٣)
كَأَنَّ طَرْفَكَ يَوْمَ « الْجُزْعِ » يَخْبِرُنَا
بِمَا طَوَى عَنْكَ مِنْ أَسْمَاءِ قَتْلَاكَ ^(٤)
أَنْتَ النِّعَمِ لِقَلْبِي وَالْعَذَابِ لَهُ
فَمَا أَمْرُكَ فِي قَلْبِي وَأَحْلَاكَ
عِنْدِي رَسَائِلُ شَوْقٍ لَسْتُ أَذْكُرُهَا
لَوْلَا الرَّقِيبُ لَقَدْ بَلَّغْتُنَهَا فَانْكَ

-
- (١) الغور : اسم موضع ، أو هو المنخفض من الأرض ، الريا :
الريح الطيبة .
(٢) بذى سلم : اسم موضع .
(٣) اللعاط : جمع لحظ ، باطن العين . الرثم : الظبي الأبيض .
حكت : أشبهت .
(٤) طرفك : عينك . الجزع : اسم موضع .

وعد لعينيك عندي ما وفيت به
 يا قرب ما كذبت عيني عيناك
 سقى منى وليالي الخيف ما شربت
 من الغمام وحيثها وحيثك (١)
 إذ يلتقي كل ذي دين . . وماطله
 منا ، ويجتمع المشكوك والشاكي (٢)
 لما غدا السرب يعطو بين أرحلنا
 ما كان فيه غريم القلب إلاك (٣)
 هامت بك العين لم تتبع سواك هوى
 من أعلم العين أن القلب يهواك
 حق دنا البين ما أحييت من كد
 قتلى هواك ، ولا فاديت أسراك
 يا حبذا نفحة مرّت بفيك لنا
 ونطفة غمت فيها ثناياك (٤)

(١) الخيف : واد بين منى ومكة .

(٢) ماطله : مسوقه ومؤجله .

(٣) السرب : سرب الطباء ، أي الحسان . يعطر : يرفع رأسه ويديه . الأرحل : جمع رحل ، ما يوضع على الناقة ليستطيه المسافر .

(٤) النطفة : الماء الصافي أو الرحيق الرضاب .

وحبذا وقفة والركب معتقل
على ثرى^(١) وخذت فيه مطاياك^(٢)
لو كانت اللمة السوداء من عهدي
يوم الغيم ، لما أقلت^(٣) أشراكي^(٤)

(١) معتقل : لا يستطيع السير لأن مطايا معتقلة ، أي مشدودة
الرأس الى الذراع . وخذت : سارت .
(٢) اللمة السوداء : الشعر الأسود ، كناية عن الشباب . الغيم :
راد بين الحرمين قرب مكة .
يقول : لو كان الشباب عدة لي لما تركتك تفلتين من حبالى .

اليتيمة

لدوقلة المنبجي

طالعها لأول مرة في أحد مجلدات مجلة « الحديقة » التي
كان يصدرها منذ أكثر من نصف قرن العالم الراحل «عبد الدين
الخطيب .. وقد صُدّرت بهذه الكلمات : « القصيدة اليتيمة »
نقلها العلامة الشيخ عبد العزيز الميمني الراجكوتي من آخر
نسخة مخطوطة من المقامات توجد في الهند . واستوقفتني
القصيدة ، ثم ما لبثت أن مَلَكْتُ عليّ نفسي ، وإن كان السؤال
الملح وقتها عليّ : من هو دوقلة المنبجي هذا ، الذي تنسب
إليه القصيدة اليتيمة ؟

وظللت بعد ذلك سنوات متصلة ، تطالعني - بين الحين
والحين - أبيات من اليتيمة أجدها منتثرة هنا وهناك في أمهات
كتب الأدب ، ومختارات الشعر العربي ، لكن العثور عليها
كاملةً ظل شيئاً يشبه المستحيل ، خاصة - كما عرفتُ فيما بعد -

أن بالقصيدة مقاطع أضيفت إليها ، بفعل الروايات والنقل ،
بها ما يחדش الحياء ويحرج الذوق العام ..

لكن الذي لم يختلف عليه اثنان ، أن القصيدة من عيون
تراثنا الشعري .. وأن القدماء لما أدركوا جمالها وروعيتها
وأصالتها وتقديرها أطلقوا عليها اسم « اليتيمة » أي التي
لا شبيه لها ولا نظير .

والطريف أن اليتيمة ظلت عصوراً طويلة مجهولة النسب ،
لا يُعرف اسم شاعرها الحقيقي .

فمن قائل هو الشاعر المباسي علي بن جبلة ، الذي قتله
المأمون في أول القرن الثاني الهجري ..

ومن قائل : هو أبو نواس ، الشاعر المباسي الكبير ، الذي
اشتهر بالخرجات والمجون ، وأصحاب هذا الرأي يؤكدون أن
القصيدة تحمل بصمات فنه وشاعريته .

ومن قائل : بل هو دوقلة المنبجي ، وهو شاعر لم تتحدث
عنه كتب الأدب ، ولا يُعرف له شعرٌ سواها . أما « منبج »
هذه التي ينتسب إليها الشاعر فهي بلدة بالشام نشأ فيها من
الشعراء : أبو تمام والبحثري وأبو فراس الحمداني وغيرهم من
أعلام الشعر والبيان . والطريف أيضاً أنهم اختلفوا في اسم
القصيدة :

فهى « اليتيمة » ، وهى « هند » ، وهى « دعد » ..

ثم جاء هذا الكشف عن مصدر القصيدة وحقيقة نسبتها وأصلها الكامل — كما نشرته مجلة الحديقة — ليحسم الأمر ، وينسب القصيدة إلى صاحبها ..

وهكذا لم تعد « اليتيمة » يتيمة النسب !

و « اليتيمة » تنطق بشاعرية شاعر أصيل مقتدر ، تفنن في وصف محبوبته « دعد » ، فلم يترك شيئاً منها ، إلا وقد وصفه أدق وصف وأجمله ، وكأنه يقدم صورة للجمال كما تعشقه العربى القديم ، وحتى ليخيل لقارىء القصيدة أنه يتأمل لوحة فاتنة أبدعتها ريشة رسام مبدع .

رسم الشاعر في لوحته الفاتنة جسم محبوبته ، ووجهها ، وشعرها ، وجبينها ، وجيدها ، وزندها ، ومعصمها ، وغداثرها ، وكل نبضة من نبضاتها ، ولم يفتئ أن يصف زهوله وإطراقه أمام هذا المشهد الرائع من مشاهد الحب والجمال ، وأن يتحدث عن أنفته وعزته وكبريائه حين يعزى عليه الوصال وكأنه بذلك يقدم لنا مثل الفارس العربى النبيل يذوب في هواء صباية ووجداء ، ولكنه يترفع عزّة وإباء وشموخاً ، ويحل نفسه عن ارتكاب الدنايا والصغائر .

والقصيدة — رغم التزامها في بنائها العام للنهج التقليدي

للقصيدة العربية بدءاً بالوقوف على الأطلال ثم الحديث عن موضوع الحب وصفاً وشكوى ووجداً ، ثم انتهاءً بالفخر بالنفس وتأكيد معنى العزة والنخوة — إلا أن ما ينسكب عليها من ماء الشعر يحملها بالغة الرقة والعذوبة ، ويجعل لها مذاقاً خاصاً في وجدان المتلقي ينأى به عن تصورها حبيسة هذا البناء التقليدي ، بما تكشف عنه القصيدة من تصورات رجة للخيال والحس العربي العاشق .

والآن إلى البيتية :

وقوفٌ على الأطلال :

هل بالطول لسائل ردُّ
أم هل لها بتكلمٍ عهد^(١)
درّس الجديدُ ، جديدٌ ممهدا
فكأنما هي ربطة جرد^(٢)

(١) الطول : جمع طل ، هي ما يتخلف من الآثار والديار بعد زوالها .

(٢) درس : زال وأعي . ممهدا : ما عهد فيها من آثار الحياة والاقامة . ربطة جرد : أي مُلّاة بالية أو ثوب مهترى .

من طول ما تبكي الغيوم على
 عَرَصَاتِهَا ، ويقهقه الرعد^(١)
 وتلثُ ساريةً وغاديةً
 ويكرُ نحسٌ خلفه سعد^(٢)
 تلقاءً شاميةً يمانية
 لهما بمورٍ ترايبا سرود^(٣)
 فكست بواطنها ظواهرها
 نوراً كأن زهاء برد^(٤)
 فوقفت أسأها ، وليس بها
 إلا المها ونفاق ريد^(٥)
 فتبادرت درر الشئون على
 خدّي كما يتناثر العقد^(٦)

(١) عَرَصَاتِهَا : ساحاتها .

(٢) تلث : تدوم وتستمر أياماً . السارية والغادية : الحصب المطرقة .

(٣) مور ترايبا : إثارة ترايبا وتحريكه بشدة . سرود : تتابع .
 الشامية واليانية : أسماء للسحاب المطر بحسب اتجاه قدرمه .

(٤) الزهاء : النظرة . البرد : الثوب المخطط .

(٥) المها : جمع مائة ، وهي البقرة الوحشية . النفاق : جمع نفق :
 ذكر النعام . ريد : لونها يمتلئ في السواد بكثرة .

(٦) درر : جمع درة : ما يدر من المطر والبن ، والمراد هنا بدرر
 الشئون : دموع العينين النهمرة .

صورة وصفية للمحبوبة :

لفني على « دعد » وما حفلت
 بالأبجر تلهفي « دعد »
 بيضاء قد لبس الأديم بها
 الحسن، فهو لجِلدها رِجلُها^(١)
 ويزينُ فوْديها إذا حسرتُ
 ضافي الغدائر فاحمُ جَمْعُ^(٢)
 فالوجه مثل الصبح مُبيضُ
 والشعر مثل الليل مسودُ
 ضدانِ لما استجمعا حسنا
 والضدُّ يظهر حُسنه الضدُّ
 وكأنها وسُنَى إذا نظرت
 أو مدنف لما يُفِيق بعد^(٣)
 بفتور عينٍ ما بها رمدُ
 وبها مداوى الأعين الرمدُ

(١) الأديم : الجلد .

(٢) الفردان : جانبا الرأس بما يلي الأذن . جمع : متجمع كثيف
 والمقصود به (الشعر) .

(٣) وسنى : أخذها النوم الشديد . المدنف : من ثقل عليه المرض .

وتُريكِ عَرْنِيناً يَزِينُهُ
 . شَمْسٌ ، وَخَدَّاهُ لَوْنُهُ الْوَرْدُ (١)
 وَتَجِيلُ مِسْوَكَ الْأَرَاكِ عَلَى
 رَتْلِ كَأَنَّ رِضَابَهُ الشَّهْدُ (٢)
 وَالصَّدْرُ مِنْهَا قَدْ يَزِينُهُ
 نَهْدٌ كَحَقِّ الْعَاجِ إِذْ يَبْدُو
 وَالْمَعْصَانِ ، فَمَا يُرَى لَهَا
 مِنْ نَعْمَةٍ وَبِضَافَةِ زَنْدٍ
 وَلَهَا بَنَانٌ لَوْ أَرَدَتْ لَهُ
 عَقْدًا بِكَفِّكَ أَمَكْنَ الْعَقْدُ
 وَكَأَنَّهَا سَقِيتُ تَوَائِبَهَا
 وَالنَّحْرُ مَاءَ الْوَرْدِ إِذْ تَبْدُو (٣)
 وَبِصَدْرِهَا حَقَّانِ خَلَّتْهَا
 كَافُورَتَيْنِ عَلَامَا نَدَ (٤)

-
- (١) العرنين : الأنف . الشمس : الرفع والكبرياء .
 (٢) الرتل : الفم الجميل الأسنان في بياض وللمان . الرضاب :
 المقصود به ماء الفم .
 (٣) التوائب : عظام الصدر . النحر : أعلى الصدر .
 (٤) الندب : عود طيب الرائحة يقبض به .

والبطن مطويّ كما طويت
 بيضُ الرِّياط يصونها المُنْدُ (١)
 وبخصرها هيف يزينه
 فإذا تنوء يكاد ينقدُ (٢)
 ولها هنّ رابٍ مجتته
 وعر المسالك ، حشوه وقد
 فإذا طعننت طعننت في لبدٍ
 وإذا نزعت يكاد ينسدُ (٣)
 والثفّ فخذها ، وفوقها
 كتل - يجاذب خصرها - نهد (٤)
 فقيامها مثني إذا نهضت
 من ثقله ، وقعودها فرد
 والساقُ شرعية منعمة
 عبلت فطوق الحجل منسدُ (٥)

-
- (١) الرِّياط: جمع رِبطة وهي الملاة . اللد: جمع ملدء : المرأة الناعمة .
 (٢) الهيف : ضور البطن ووقة الخاصرتين . تنوء : تنهض يجهد
 ومشقة - تسقط . ينقد : ينكسر .
 (٣) اللبد : الشعر الكثيف المتجمع . وهذا البيت والبيت السابق
 يقال لإنها دخيلان على القصيدة .
 (٤) الكتل المعجز أو الردف . نهد : البارز المرتفع .
 (٥) شرعية : الطريقة الناعمة . عبلت : اكتنزت وضخمت .

والكعب أدرم لا يبين له
 حجم^(١) ، وليس لرأسه حد^(٢)
 ومشت على قدمين مُحصَرة
 والتفتُّنا ، فتكامل القد^(٣)
 ما عاها طول ولا قِصر
 في خلقها ، فقوامها قصد^(٤)

الشكوى من الفجر والصدود :

إن لم يكن وصل لديك لنا
 يشفي الصبابة ، فليكن وعد^(٥)
 قد كان أورق وصلكم زمناً
 فذوى الوصال وأورق الصد^(٦)
 لله أشواقى إذا نزحت
 دار بنا ، وطواكمو البعد

(١) أدرم : عظمه لا يبين من كثرة لحمه اللين الأملس .

(٢) القد : القوام .

(٣) قصد : سوي معتدل ليس به طول أو قصر .

(٤) الصبابة : شدة الوجد والهيام .

(٥) أورق وصلكم : طاب وصلكم وواتى وأينع .

إن تنهمي فتهامة وطني
 أو تنجدي، يكن الهوى نجد^(١)
 وزعمت أنك تضررين لنا
 ودأ ، فهلا ينفع الود !
 وإذا الحب شكا الصدود ولم
 يعطف عليه فقتله عمد
 تختصها بالود ، وهي على
 ما لا نحب ، فكذا الوجد !

فخر وكبرياء :

أو ما ترى طمري بينهما
 رجل ألح بهزله الجد^(٢)
 فالسيف يقطع وهو ذو صدأ
 والنصل يعلو الهام لا الغمد^(٣)

(١) إن تنهمي أو تنجدي : أن تنتسبي الى تهامة أو نجد .

(٢) طمري : منى طمر، وهو الثوب البالي .

(٣) الهام : جمع مامة ، الرأس .

هل تنفعن السيف حليته
 يوم الجلاء إذا نبا الحد^(١)
 ولقد علت^٢ بأنني رجل^٣
 في الصالحاتِ أروح^٤ أو أغدو
 سلم^٥ على الأدنى ومرحمة^٦
 وعلى الحوادث هادن^٧ بيلد^٨
 متجلبب ثوب العفاف وقد
 غفل الرقيب وأمكن الورد^٩
 ومجانب^{١٠} فعل القبيح ، وقد
 وصل الحبيب ، وساعد السعد
 منع المطامع أن تثلثني
 أنثي ليمغولها صفا^{١١}
 فأروح^{١٢} حرًا من مذلتها
 والحر^{١٣} حين يطيعها عبدا^{١٤}

(١) نبا : زاغ ولم يصب .

(٢) هادن : ساكن . بجلد : صبور قوي .

(٣) الورد : الوصال والارتواء من الحب .

(٤) تثلثني : تخرجني وتعييني . صفا : جمع صفاة : الصخرة أو الحجر الضخم . الصلد : الصلب القوي .

آليت أمدح 'مقرفاً' أبداً
 يبقى المديح وينفد الرفد^(١)
 ميهات ، يابى ذاك لي سلفاً
 خدوا ولم يخمد لهم مجد
 والجدُّ كيندة والبشون هو
 فزكا البنون وأنجب الجدُّ^(٢)
 فلئن قفوت جيل فعلهمو
 بذيهم فعلي ، إنني وعُدُّ^(٣)
 أجمل إذا حاولتَ في طلبِ
 فالجدُّ يُفني عنك لا الجدُّ^(٤)

نداء أخير :

ليكن لديكِ لسانٌ "فرج"
 أو لم يكن .. فليحسن الردُّ !

(١) مقرفاً : غنياً ، كثير اقتناء المال . الرفد : المطاء .

(٢) زكا : أفلح ونجح .

(٣) قفوت : تيمت .

(٤) أجمل : اعتدل ولا تقروط . الجدُّ : الحظ .

قمر في بغداد

لابن زريق البغدادي

وهذا شاعرٌ قتله طموحه ، يعرفه دارسو الأدب ومحبوه ،
لكنهم لا يعرفون له غير هذا الأثر الشعري الفريد يتناقله
الرواة ، وتُعنى به دواوين الشعر العربي . فإذا ما تساءلنا
عن الشاعر ، وعن سائر شعره فلن نطفّر من بين ثنايا الصفحات
بغير بضعة سطور تحكي لنا مأساة الشاعر العباسي ابن زريق
البغدادي الذي ارتحل عن موطنه الأصلي في بغداد قاصداً بلاد
الأندلس ، علّه يجد فيها من لين العيش وسعة الرزق ما يُعوضه
عن فقره ، ويترك الشاعر في بغداد زوجةً يحبها وتحبه كل
الحب ، ويخلص لها ويخلص له كل الاخلاص ، من أجلها يهاجر
ويسافر ويفترّب . وفي الأندلس - كما تقول لنا الروايات
والأخبار المتناثرة - يجاهد الشاعر ويكافح من أجل تحقيق
الحلم ، لكنّ التوفيق لا يصاحبه ، والحظ لا يتسم له ، فهناك
يمرض ، ويشتد به المرض ، ثم تكون نهايته في الغربة .

ويضيف الرواة 'بعداً جديداً للنأسة' ، فيقولون إن هذه القصيدة التي لا يُعرف له شعر سواها وجدت معه عند وفاته سنة أربعمائة وعشرين من الهجرة ، يخاطب فيها زوجته ، ويؤكد لها حبه حتى الرمق الأخير من حياته ، ويترك لنا - نحن قراءه من بعده - 'خلاصة' أمينة لتجربته مع الغربة والرحيل ، من أجل الرزق ، وفي سبيل زوجته التي نصحته بعدم الرحيل فلم يستمع إليها ، ثم هو في ختام قصيدته نادم - حيث لم يصد ينفع الندم أو يجدي - متصدع القلب من لوعة وأسى ، حيث لا أنيس ولا رفيق ولا معين .

والتأمل في قصيدة ابن زريق البغدادي لا بدَّ له أن يكتشف على الفور رقة التعبير فيها ، وصدق العاطفة ، وحرارة التجربة . فهي تتمُّ عن أصالة شاعر مطبوع له لغته الشعرية المتفردة ، وخياله الشعري الوثاب ، وصياغته البليغة المزهقة ، ونفسه الشعري الممتد . والغريب ألا يكون لابن زريق غير هذه القصيدة ، مثله كمثل دوقة المنبجي الذي لم تحفظ له كتب تراثنا الشعري غير قصيدته « اليتيمة » .. وهكذا استحقَّ الشاعران فضل البقاء والذكر - في ذاكرة الشعر العربي كله - بقصيدة واحدة لكل منهما .. وبالمقابل ، ما أكثر الشعراء الذين لا تعيهم ذاكرتنا ، بالرغم من أنَّهُم سَوَدُوا مئات الصفحات وتركوا عشرات القصائد وزحوا الدواوين والمكتبات .

يستهلّ ابن زريق قصيدته بمخاطبة زوجته ، يناشدها ألا
تعذله أو تلومه ، فقد أثر فيه اللوم وآذاه ، وأضرّ به بدلاً
من أن ينفعه ، إنه هنا يبسط بين يديها أسباب رحيله عنها
وتركه لها طمعاً في الرزق الفسيح والعيش الهانيء الوثير ،
وسرعان ما يعلن عن ندمه لأنّ ما أمّله لم يتحقق ، وما رجاء
من رزق وفير لم يتح له ..

ثم يلتفت ابن زريق التفاتة محبة عاشق إلى بغداد ،
حيث زوجته التي تركها دون أن يستمع إلى نصحتها ، إنها
ملكته التي أضاعها ولم يحسن تدبيرها وعثره الذي خلع عنه ..
وفي ختام القصيدة ، يصف ابن زريق - في تعبير صاف
مؤثر ونسيج شعري محكم - واقع حاله في القرية ، بسين
الأسى واللوعة ، والألم والندم ، وهنا ينفصح الجال التأمّل ،
وينطلق اللسان بالحكمة التي أنضجتها التجربة ، ويشرق القلب
بالدموع .

* * *

يقول ابن زريق البغدادي :

رفقاً به بدلاً من لومه :

لا تعذليه ، فإن العذل يولعه

قد قلت حقاً ، ولكن ليس يسمعه^(١)

(١) لا تعذليه : لا تلومه .

جاوزتِ في لومه حداً أضرب به
 من حيث قدرتِ أن اللوم ينفعه
 فاستعملي الرقى في تأنيبه ، بدلاً
 من عدله ، فهو مضنى القلب موجهه
 قد كان مضطماً بالخطب يحمله
 فضيقت بخطوب الدهر أضلعه
 يكفيه من لوعة التشتيت أن له
 من التوى كل يوم ما يروعه ^(١)
 ما آت من سفر إلا وأزعجه
 رأي إلى سفره بالعزم يزعمه ^(٢)
 كأنما هو في حلٍ ومرتحل
 موكل بفضاء الله يذرعه ^(٣)

لماذا رحل :

إن الزمان أراه في الرحيل غنى
 ولو إلى السد أضحى وهو يزعمه ^(٤)

(١) التوى : الفراق والبعد .

(٢) آت : رجع .

(٣) موكل : معنى ومسئول . يذرعه : يقطعه . الحل والترحل : الإقامة والرحيل .

(٤) يزعمه : يعتزمه ويتبريه .

وما مجاهدة الإنسان قوصله
 رزقاً ، ولا دعة الإنسان تقطعه (١)
 قد وزع الله بين الخلق رزقهم
 لم يخلق الله من خلق يضيعه
 لكنهم كلفوا حرصاً ، فليست ترى
 مسترزقاً ، وسوى الغايات تقنعه (٢)
 والحرص في الرزق - والأرزاق قد قسمت -
 بغي ، ألا إن بغي المرء يصرعه
 والدمر يعطي الفق - من حيث يمنعه -
 إرثاً ، ويمنعه من حيث يطعمه

كيف كان الوداع :

أستودعُ الله في بغداد لي قرأ
 «بالكرخ» من فلك الأضرار مطلعه (٣)

(١) المجاهدة : مواجهة المصاعب والشدائد . الدعة : الأمان والسكون والاطمئنان .

(٢) كلفوا حرصاً : أطعمهم الحرص والرغبة في المزيد .

(٣) الكرخ : اسم موضع في بغداد . من فلك الأضرار : من بين ثنايا الثوب الذي يرتديه .

ودّعني وودّني لو بودّني
 صفو الحياة ، وأني لا أودّعه
 وكم تثبت بي يوم الرحيل ضحى
 وأدمعي مستهلات وأدمعه (١)
 لا أكذب الله ، ثوب الصبر منخرق
 عنّني بفرقة ، لكن أرقعه
 إني أوسع عذري في جنايته
 بالبين عنه ، وجُرّمي لا يوسّعه (٢)
 رزقتُ ملكاً فلم أحسن سياسته
 وكلُّ من لا يسوس الملك يخلعه
 ومن غدا لابساً ثوب النسيم بلا
 شكرٍ عليه ، فإن الله ينزعه

غربة وندم :

اعتضتُ من وجه خلّتي بعد فرقة -
 كأساً أجرّع منها ما أجرّعه (٣)

(١) تثبت : استمك . مستهلات : سيالة متدفقة .

(٢) البين : البعد . جرّمي : ذنبي .

(٣) اعتضت : استبدلت .

كم قائل لي : ذقت البين ، قلت له :
 الذنبُ والله ذنبي لست أدفعه
 ألا أمت فكان الرشد أجمه ؟
 لو أنني يوم بان الرشد أتبعه
 إني لأقطع أيامي ، وأنفدها
 بحسرة منه في قلبي 'تقطعه' (١)
 بن إذا هجع النوم بت له
 - بلوعة منه - ليلى ، لست أهجمه (٢)
 لا يطمئن لجنبي مضجع ، وكذا
 لا يطمئن له مذ ربت مضجعه (٣)
 ما كنت أحسب أن الدهر يفجعني
 به ، ولا أن بي الأيام تفجعه
 حتى جرى البين فيما بيننا بيد
 عسراء ، تمنعني حظي وقتعه (٤)
 قد كنت من ريب دهري جازعاً فرقاً
 فلم أوق الذي قد كنت أحزعه (٥)

-
- (١) أنفدها : أمضيها وأنهيها .
 (٢) هجع : رقد وآوى الى النوم .
 (٣) ربت : غبت وارتحلت .
 (٤) يد عسراء : يد باطشة قاهرة (من العسر والضيق والشدة) .
 (٥) ريب الدهر : صروفه وأحداثه المفزعة . فرقاً : خائفاً متوجساً .

حنين إلى العهد القديم :

يا الله يا منزل العيش الذي درّست
آثاره ، وعفّتْ منّا بنتٌ أربعة (١)
هل الزمان مُعيد فيك لذّتنا
أم الليالي التي أمضته تُرجعه
في ذمة الله من أصبحت منزله
وجاد غيث على مفناك يُمرّعه (٢)
من عنده لي عهد لا يضيّعه
كما له عهد صدق لا أضيّعه
ومن يصدّع قلبي ذكره ، وإذا
جرى على قلبه ذكرى يصدّعه (٣)
لأصبرن* لدهرن لا يمتنعني
به ، ولا بيّ في حال يمتعه

(١) درست : زالت وأمحت . أربع : جمع ربع : الدار أو مكان الإقامة أو ما حولها .

(٢) الغيث : المطر الكثير المنافع . المغنى : المنزل الذي غني به أهله . يمرّعه : يخلصه وينضّره .

(٣) يصدّعه : يهدّيه ويمزقه .

علماً بأن اصطباري مُعقباً فرجاً
 فأضيقُ الأمر إن فكثرت أوسعه (١)
 عسى اللبالي التي أضنت بفرقتنا
 جسمي ، ستجمني يوماً وتجمعه
 وإن تغل أحداً منّا منيته
 فما الذي بقضاء الله يصنعه ! (٢)

* * *

(١) معقب فرجاً : متبوع فرجاً ويسراً .

(٢) تغل : تهلك . النية : الموت .

مجلس الحبيب

لصفي الدين الحلي

يأتينا شعره في عصر المخطاط. الدولة العربية ، والشعر
العربي ، قَبَسًا متقدماً بالشاعرية الأصيلة ، وصوتاً فريد التعبير ،
رائق الأنغام ، صافي الديباجة ، قوي السبك ، فيعود الأمل
من جديد في قافلة الشعر العربي .. وتصدح القوافي على وتر
هذا الشاعر العراقي الأصل والنشأة ، المصري* الروح والإقامة ،
صفي الدين الحلي ..

هو أبو المحاسن عبد العزيز بن سرايا بن نصر الطائي ، ولد
في مدينة الحِلَّة بالعراق سنة ستائة وسبع وسبعين من الهجرة ،
وإليها نسب ، ومات في بغداد سنة سبعمائة واثنين وخمسين
من الهجرة ..

يقول عنه الرواة إنه أولع بنظم الشعر منذ حداثة سنه
— على غير عادة شعراء عصره وأهل زمانه — عاهد نفسه ألا

يمدح كريماً وألاً يهجو لثيماً ، ملتزماً بقوله إنه لا ينظم الشعر
إلا فيما أوجب له ذكراً ..

ويطالعنا صفى الدين الحلي بشخصية طريفة فاتنة ، هي
شخصية الفارس الشجاع المقاتل ، يقتحم المهالك والمخاطر ،
مقدماً غير مبال أو هيباب أو متردد .. تقع الفتنة في بلده
« الحليّة » بين أبناء أسرة هولاء بسبب الصراع على العرش ،
فيخوض صفى الدين غمارها غير هيباب ولا وجل ، ويظهر
بطولة وشجاعة ينطق بها شعره ..

وفي ذلك العصر ، الذي سقط المجد والشرف العربي تحت
أقدام هولاء ، وخربت بغداد ، عاصمة الوطن العربي ،
واحتل العراق ، نجده صفى الدين عربياً صادق العروبة ، يجهر
بها في شعره ، ويتحمس دوماً لقومه ، ويبث فيهم روح الأنفة
والطموح والعزيمة والتمرد ، وهي مزية لا نجدها عند شاعر
سواه من شعراء ذلك العهد ، الذين كانوا يتسترون ويتوارون
خوفاً وذعراً ورغبة في اتقاء الفتن والأخطار والحروب .

ثم يرحل صفى الدين إلى آل « أرتق » ملوك ديار بكر بن
وائل ، فيمدح الملك المنصور نجم الدين أبا الفتح غازي بتسع
وعشرين قصيدة سماها « درر النحور في مدائح الملك المنصور »
وهي المعروفة - في ديوان الشعر العربي - بالأرتقيات ، ثم
يتصل بالسلطان المؤيد عماد الدين اسماعيل ابن الملك الأفضل
أيوب ثم بابنه شمس الدين أبي المكارم ، مادحاً ، مستحناً

للهمم ، مصرّاً على إحياء الروح العربية والنخوة العربية
والشمم العربي ..

وتشتد الفتن ، ويضطرب نظام كل شيء ، ويفتقد الأمر
والاطمئنان ، فيرحل صفي الدين إلى مصر ، ويقربه سلطانها
الملك الناصر ، فيمدحه بعدة قصائد سماها المتصوريات .. ثم
يجمع ديوانه في مصر بإشارة من ناصر الدين محمد بن قلاوون
رئيس وزراء السلطان الناصر .

ويتأثر الشاعر تأثيراً عميقاً بإقامته في مصر ، لقد هدأت
روحه وصفت لفته الشعرية ورقّت وأخذت تميل إلى السلاسة
والعذوبة ، وأصبح الفارس العنيد الجامح عاشقاً رقيقاً مرهفاً ،
تفتك به محاجر العيون وسهام الأخطا وهيف الخصور ، وتسببه
المجالس الناعمة ، ومظاهر الطبيعة الغناء ، ويفتن في وصف
مجالس اللهو والأنس ، ويأسر القلوب بما أبدع من ربيعاته
وزهرياته الجميلة ، التي يقول في إحداها :

ورد الربيعُ فرحاً بوروده

وبنور بهجته ونور وروده

وبحسن منظره وطيب نسيمه

وأنيق ملبه ووشى بروده

فصل إذا افتخر الزمان ، فإنه

إنان مقلته وبيت قصيده

وغزلياته الرقيقة التي يقول في إحداها :

عبث النسيم بقـــــــمــــده فتأوذا
وسرى الحياءُ بخذّه فتوردا
رشأ تغرّد فيه قلبي بالهوى
لما غدا يحمله متفردا
مغرى بإخلاف المواعد في الهوى
يا ليتني جعل القطيعة موعدا
حسن الفصون إذا اكست أوراقها
ونراه أحسن ما يكون مجردا

* * *

والتأمل في شعر صفي الدين الحلي يلمس على الفور ولعه
بالبديع والمحسنات اللفظية والمعنوية التي شاعت في زمانه
لكنها ، على كثرتها ، لا تفسد ماء شعره ورونق بهائه
فشاعريته الخصبه واقتداره اللغوي وحسه المرفه وذوقه
الرفيع تتغلب جميعا على هذه المحسنات والبديعيات ، ولا تجعل
القارئ يصدم كثيراً بتكلف أو مبالاة أو تكرار أو جفاف
في التعبير ونحو في الصياغة .

ولعل القصيدة التي نطالعها له الآن ، أن تكون فريدة
الطابع في ديوان شعرنا العربي كله ، فهي قصيدة تدور كلها

حول وصف مجلس أنيق استمتع فيه الشاعر بحبيبه، وافتنّ في تصوير كل ما أحاط بها من مشاهد الطبيعة والسحر والجمال :
الجمال الطبيعي والجمال الإنساني معاً ، افتناناً لا يدع زيادة
لـمـسـتـزـيـد ، في عبارة سهلة ممتنة ، وخيال طليق علق ،
وموسيقى عذبة مفرقة ، كما تكشف القصيدة ، وهي طويلة ،
إن لم تكن من أطول قصائده ، تكشف عن عمق عاطفته
المشوبة ، وحبّه الساعر الملتهب ، ووجدّه المبرّح ، الذي صهر
كبرياء الفارس الشجاع وأحالها زفرات عاشق مستهام .

* * *

يقول صفي الدين الحلي في قصيدته : « مجلس الحبيب » :

أذاب التبر في صافي اللجين
رشاً بالراح مخضوب^(١) الـيـديـن
وطاف على السحاب بكأس راح
فطافت مقلّناء بآخرين
رخيم من بني الأعراب طفل
يجاذب خصره جبلي^٢ حنين

(١) التبر : الذهب . اللجين : الفضة . رشاً : غزال . مخضوب
مصبوغ بالخضاب (الحناء) . الراح : الحر .

يُبدل نطقه ضاداً بدال
ويشرك . عجة قافاً بفين
يطوف على الرفاق من الحُيّا
ومن خمر الرضاب بمُسكرين^(١)
إذا يحلو الحُيّا والمُحيا
شهدنا الجمع بين النيرين^(٢)
وآخر من بني الأعراب حفّت
جيوش الحسن منه بعارضين
إلى عليه تنسب النايّا
كما انتسب الرماح إلى ردين^(٣)
تلاحظ سوسن الخدين منه
فيبدلها الحياء بوردين
ومجلسنا الأنيق تضيء فيه
أواني الزجاج من ورق وعين
فأطلقنا فم الإبريق فيه
وبات الزُّق مغلول اليدين^(٤)

(١) الحيا : سورة الحجر وشديها . الرضاب : وحيق فم المهبوب .
(٢) النيران : الكوكبان . يقصد بها : الحر ووجه المهبوبة .
(٣) النايّا : جمع منية ، الموت . ردين : بلد كانت تشتهر بصناعة
الزجاج ، يقال : رمح رديني .
(٤) الزُّق : (بضم الزاي) الحر ، وبكسرهما : وعاء من الجلد يوضع
فيه الماء أو الحر .

وشمعتنا شبيه سنات قبر
 توقدُ في أكف الساقين
 إذا ملء الزجاج بها وطارت
 حواشي نورها في المشرقين
 عجبت لبدر كأسٍ صار شمساً
 يحفُّ من السقاة بكوكبين^(١)
 وقد صاغت يد الأزهار تاجاً
 على الأغصان فوق الجانبين
 ورد كالمداهن في عقيق
 وأقداح كازرار اللجين^(٢)
 وقد جمعت لي اللذات لما
 دنت منها قطوف الجنئين
 وما أنا من هوى الفيحاء خالٍ
 ولا عن أحب قضيت ديني^(٣)

(١) يحف : يحامل .

(٢) المداهن : جمع دهن ، وهي قارورة الدهن ، العقيق : الخرز الأحمر .

(٣) الفيحاء : اسم لدمشق (وقد كان الشاعر دائم التقليل بين العراق والشام ومصر مشتغلاً بالتجارة) .

قلّك حبه قلبي وصدري
 فأصبح سائراً في الخافقين
 وأعوز مع دنوتي منه صبري
 فكيف يكون صبري بعد بيثن^(١)
 إذا ما رام أن يسلوه قلبي
 قتل شخصه تلقاء عيني^(٢)
 ألا يا نسمة « السعدي » كوني
 رسولا بين من أهوى وبينني
 ويا نشر « الصّبا » بلغ سلامي
 إلى الفيحاء بين القلعتين^(٣)
 وحيّ الجامعين وجانيبها
 فقد كانا لشلي جامعين
 وقل لمحبتي هل من نِجَازٍ
 لوعدي سالفك السالفين^(٤)

-
- (١) البين : الفراق والمعاد . أعوز : تفدّر وامتنع .
 (٢) تلقاء عيني : أمام عيني .
 (٣) النشر : الريح الطيبة . الصّبا : ريح ناعمة تهب من الشرق .
 (٤) نِجَاز : إنجاز وتحقيق .

سيئك كان مقتولاً بظلم
 وأذت ظلمتني وجلبت حيني^(١)
 وهبتك في الهوى روعي بوعد
 وبعثك عامداً نقداً بدين
 وجئت وفي يدي ، كفي وسيفي
 فكيف جعلتها 'خفي' حنين !^(٢)
 ولم صيرت بعدك قيد قلبي
 وكان جمال وجهك قيد عيني ؟
 فصرنا نشبه النسرين بعداً
 وكنا ألفة كالفرقدين^(٣)
 علمت بأن وعدك صار مينا
 لزجري مقلتيك بصارمين^(٤)

-
- (١) حيني : هلاكي وموتي . سيئك : من اسمه على اسمك .
 (٢) حنين : يضرب به المثل عند العرب في العودة صفر اليدين دون
 أي كسب .
 (٣) الفرقدان : نجمان متجاوران في السماء .
 (٤) مينا : كذباً وزوراً .

وقلت وقد رأيتك : خاب سعي
 لكون البدر بين المقربين
 فلمْ دلّيتني بجمال زورٍ
 ولمْ أطمعتني بسرّاب مِينٍ^(١)
 وملاً قلت لي قولاً صريحاً
 فكان المنع إحدى راحتين
 عرفتكَ دون كل الناس ، لما
 نقدتك في الملاحاة نقد عينٍ^(٢)
 وكَم قد شاهدتكَ الناس قبلي
 فلما نظروك كلهمو بعيني
 وطاوعت الفتوة فيك حق
 جعلتك في العلاء برتبتين
 فلما أن خلا المغنى وتبنا
 عُرّةً بالعفاف مؤزّرين^(٣)

(١) دلّيتني بجمال زور : أطمعتني كذباً في الري والسعي .

(٢) نقدتك : فحصتك واختبرتكَ وميزتكَ .

(٣) المغنى : المكان أو الدار التي تضمنا . مؤزّر : ملفّ بإزار وهو كل ما يستر الجسم .

قضينا الحج خيماً . واستلاماً
 ولم نشعر بما في المشعرين
 أتهجرني وتحفظ عهد غيري
 وهل للموت عذرٌ بعد دين
 وقلت : الوعد عند الحرِّ دينٌ ،
 فكيف مطّلتني وجعدت عيني^(١)
 إذا ما جاء محبوبي بذنب
 يسابقه الجبال بشافعين
 وقلت : جعلت كلَّ الناس خصمي
 لقد شاهدت إحدى الحالتين
 فكان الناس قبل هواك صحي
 فهل أبقيت لي من صاحبين ؟
 بعادي أطمع الأعداء حتى
 وأولئك اليوم خزر الناظرين^(٢)
 وهلا طالعوك بعين سوء
 وأمرني نافذ في الدولتين^(٣)

(١) مطّلتني : سوفت بوعدتي ولم تف به ..

(٢) خزر الناظرين : ضيق العينين لأنه ينظر بؤخرهما .

(٣) الدولتان : يقصد بها السيف والقلم أي أنه فارس شاعر .

وما خفقت جناح الجيش . إلا
 رأوني ملء قلب المسكرين
 لئن سكنت إلى « الزوراء » نفسي
 فإن القلب بين محرّكين ^(١)
 هوى يقتادني لديار بكر
 وآخر نحو أرض الجامعين ^(٢)
 سأسرع نحو رأس العين خطوي
 وأقصدها على رأسي وعيني
 وأسرح في حمى « جيرون » طرفي
 وأربع في رياض النّيرين ^(٣)
 فليس الخطبُ في عيني جليلاً
 إذا قابلته بالأصفرين ^(٤)

-
- (١) الزوراء : مدينة بغداد ؛ سميت بهذا الاسم لازورار قبلتها (بها عوج) . بين محرّكين : بين عاملين قوين يتجهان به .
 (٢) أرض بكر : العراق . أرض الجامعين : دمشق .
 (٣) جيرون : أحد أبواب دمشق القديمة . أسرح طرفي : أقلب نظري .
 أربع : أستمع بالربيع .
 (٤) الأصفران : هما اللسان والقلب .

فيا من بان لما بان صبري
وحاربني رقاد^١ المقلتين
تنفص فيك « بالزوراء » عيشي
وبندل زين^٢ لذاتي بشين^(١)
وما عيشي بها كجهنم ، ولكن
رأيت الزين بمدك غير زين^(٢)

* * *

(١) الشين : ضد الزين ، والزوراء : من أسماء بغداد .

(٢) الجهم : العابس المشوب بالكدر والاهتمام .

[أضحى التناسي]

لابن زيدون

هو أشهر صوت شعري انطلق في ربوع الأندلس ، مفرداً ،
مردداً أحلى القصائد والمقطوعات ، شاعراً ووزيراً وعاشقاً
مستهماً ، وسجيناً وهارباً ومطارداً ، وساعياً من بلدة إلى
بلدة ومن حاكم إلى حاكم ، وأتيح لشعره من الذبوع ما لم يتح
لغيره من شعراء الأندلس - ذلك هو ذو الوزارتين : الكاتب
الشاعر الرقيق : ابن زيدون عاشق ولادة بنت المستكفي ،
وبحري الغرب في رأي الكسبرين - تشبهاً له ببحتري
الشرق - في رقة تعبيره وروعة أساليبه وانطلاق خياله وأصالة
فنه وقدرته على التحليق الشعري .

ولد ابن زيدون في قرطبة قرب ختام القرن الرابع
الهجري - سنة ثلاثئة وأربع وتسعين - وبها تنقف وأتقن فن
الأدب : شعره ونثره ؛ ثم اتصل بابن جهنم وصار وزيره
وكاتبه الأول حتى كان حبه لولادة ومزاحمة ابن عبدوس له في

حبها ، ومكيدته له عند ابن جهور التي انتهت بسجنه ، ومن السجن يرسل ابن زيدون أناتٍ مستعطفة وقصائد مليئة بالشكوى والمرارة والرجاء ، فلا يلتفت إليه أحد - وينجح ابن زيدون في الفرار من السجن ومغادرة قرطبة ، ثم يعود إليها بعد أن توفي أبو الحزم بن جهور وقوى الحكم ابنه الوليد ، الذي يُعيدُه إلى سابق مكانته ومنزلته ويحمله سفيراً بينه وبين ملوك الطوائف .

لكن الحسد والحقد والدسائس تلاحق ابن زيدون من جديد ، فينقلب عليه الوليد ، ويضطر إلى الفرار من قرطبة ثانية ، وينتقل في الأندلس ، حتى يُلقى عصا التسيار لدى المعتضد حاكم إشبيلية ، ويموت المعتضد ، فيصبح ابن زيدون وزير ابنه « المعتد » الذي كان شاعراً ، فيعلى مقام ابن زيدون ، ويتأنق نجمه ، وتلتئم مواهبه وتزكو شاعريته ، وتدور بين الأمير ووزيره مطارحات شعرية كثيرة ، ثم يتم للمعتد الاستيلاء على قرطبة موطن ابن زيدون وينتقل إليها ويجعلها عاصمة ملكه . . وتثور في إشبيلية فتنة طائفية بسبب اليهود فيرسل المعتد ابن زيدون لتهدئتها بما له من منزلة في قلوب الإشبيليين ، لكن الشاعر الذي كان قد هزم وشاخ وأنهكه المرض لا يكاد يصل إلى إشبيلية حتى تلج عليه الحمى ويموت فيها سنة أربعمائة وثلاث وستين من الهجرة .

هذه الحياة العاصفة المتقلبة ، وهذه الأحداث الجسيمة

المتتالية ، صقلت وجدان ابن زيدون وألهبت قدرته الشعرية ، وانعكست في شعره تفتناً في الشكوى والحنين والتأمل والنظر في مصائر الأيام وتقلب الزمان . لكن أبعد ما غوراً في نفسه هو حبه لولادة بنت المستكفي ، التي كانت 'تقربه حيناً ثم تقرب غريمه ومنافسه ابن عبدوس حيناً آخر . ومن أجل ولادة كتب ابن زيدون نونيته الرائعة - أشهر قصائده على الإطلاق - والتي عارضها أحد شوقي وهو يعاني بدوره مرارة النفي والاعتراب في أسبانيا بنونيته التي مطلعها :

يا نائح الطئح أشباه عوادينا
نأسى لواديك أم نشجى لوادينا

والتي جعلت كثيراً من المولعين بالمقارنات يتوقفون عند القصيدتين ، تأملاً وتحليلاً وتقييماً ومقارنة ، كما توقفوا عند السينيئين : سينية البحاري وسينية شوقي للسبب نفسه . يتميز شعر ابن زيدون بالمذوابة وتوافر النغم الموسيقي والسهولة ، كما يتميز بالانسياب والاسترسال والتدفق في طواعية ويُسّر ، ودون جهد أو إعفات ، شأن الشاعر المطبوع الذي يمتح من معين صاف لا ينضب ، وشعره في الغزل يتميز بالنعومة والبراعة في التصوير ، تصوير خلجات النفس ومكنون أسرارها ، ولوعة الحب الصادق في معاناته ومكابدته ، كما يتميز بمزجه الغزل بوصف الطبيعة ، مما أعطى لقصائده في الحب إطارها الطبيعي المشرق ، وجعلها شبيهة باللوحات

المصوّرة ، الناطقة بالفن الرفيع والشعور الحيّ المرهف ،
والوجد المتقدم المبرّح ..

يقول الدارسون لحياة ابن زيدون وشعره ، إنه كتب
نونيته هذه وهو هارب من السجن بعد أن يش من إقناع ابن
جهور بإطلاق سراحه ، وأصبح بعيداً عن مركز الوزارة
المرموق ، وتلفتت يبحث عن ولادة فآلفى نفسه بعيداً عنها
أيضاً .. ولقد عادت إليه حريته بالهرب من السجن ، ولكنه
ما يزال يعاني غريتين أو معضلتين ، الوزارة التي يصبو إليها ،
والتي يعتبر عودته إليها تصحيحاً لمسار حياته وتكريماً لذاته ،
وولادة التي بذل لها نفسه وعصارة قلبه وخلاصة شعره والتي
يخشى أن يفقدها إلى الأبد ..

إن الشاعر العاشق يستعطف محبوبته وضالته ويذكرها
بأيامها الماضية ، لعلها ترقّ وتلين ، فيمود ثانية ما كان بينهما
من ريق الوصال ، وأنيس الوداد ..
يقول ابن زيدون مخاطباً ولادة ..

استهلال وتوجع :

أضحى التناهي بديلاً من تدانينا
وثاب عن طيب لقيانا تجافينا

ألا، وقد حان صبحُ البينِ، صَبَحْنَا
 حيناً، فقام بنا للعينِ ناعيناً^(١)
 من مبلغِ الملبسينا بانتراحهمو
 'حزننا مع الدهر لا يَبْلَى وَيُبْلِينَا
 أن الزمان الذي ما زال يضحكننا
 أنساً بهرهمو قد عاد 'يَبْكِينَا
 غيظ العدا من تساقينا الهوى، فدَعُوا
 بأن نَقْصُ فقال الدهرُ آمينَا
 فاحلَّ ما كان معقوداً بأنفسنا
 وانبتْ ما كان موصولاً بأيدينا^(٢)
 وقد نكون وما 'يُخْشَى تفرقنا
 فاليومَ نحنُ وما 'يُرجى تلاقينا
 شهادة الحساد :

يا ليت شعري ، ولم نعتب أعاديكم
 هل نال حظاً من العتبى أعادينا^(٣)

(١) الحين : الهلاك . البين : الفراق .

(٢) انبت : انقطع .

(٣) نعتب : رضى ، والعتبى : الرضا .

لم نعتقد بعدم إلا الوفاء لكم
رأياً ، ولم نتقلد غيره ديننا
ما حققنا أن تقرأوا عين ذي حسد
بنا ، ولا أن تسرؤوا كاشعاً فينا (١)
كنا نرى اليأس تسلينا عوارضه
وقد يشنا فما لليأس يُغرينا

وفاء على العهد :

بنتم وبننا ، فما ابتلت جواهرنا
شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا (٢)
نكاد حين تناسيكم ضمايرنا
يقضي علينا الأسى لولا تأسينا (٣)
حالت لفقدكمو أيا مننا ففدت
سوداً ، وكانت كم بيضاً لباينا (٤)

(١) الكاشع : العدو المبغض . تقرأوا : تسمعوا .
(٢) بنتم وبننا : أي ابتدعتم وابتدعنا . الجواهر : جمع جواهر ، وهي
الضلع ، والمراد بالجواهر مسا توضع من القلب والحشا الملتهب بالحس .
ولا جفت مآقينا : أي ولا جفت عيوننا من الدمع والبكاء عليكم .
(٣) التأسي : التصبر .
(٤) حالت : تغيرت من أبيض الى أسود .

إذ جانب العيش طلق من قافلنا
 ومورد اللهو صافٍ من تصافينا
 وإذا هصرنا فنون الوصل دانية
 قطافها ، فجئنا منه ما شئنا (١)
 ليسق عهدهم ، عهد السرور ، فما
 كنتم لأرواحنا إلا رباحينا
 لا تحسبوا نايكم عنا يغيرنا
 إن طالما غير الناي الهبنا (٢)
 والله ما طلبت أهواؤنا بدلا
 منكم ، ولا انصرفت عنكم أمانينا
 ولا استفدنا خليك عنك يشغلنا
 ولا اتخذنا بديلا منك يسلينا
 تحية واستعطاف :

يا ساري البرق غادر القصر واستر به
 من كان صرف الهوى والود يسقيننا (٣)

(١) هصرنا : جذبنا وأملنا . فنون الوصل : أنواعه وألوانه . قطافها : ثمارها . ويرى : قطوفها .
 (٢) نايكم : بعدكم .
 (٣) غادر القصر : اسفه وأمطره غداة (أول النهار) . صرف الهوى : خالص الهوى .

واسأل هنالك هل عنى تذكرنا
 ألفاً تذكره أمسى يُعنيّنا (١)
 ويا نسيم الصبّا بلغ تحيّننا
 من لو على البعد حيّا كان يحينا
 فهل أرى الدهر يقضينا مساعفة
 منه ، وإن لم يكن رغبّا تقاضينا (٢)

صورة وصفية لولادة :

ربيبٌ 'ملك' كان' الله أنشاء
 مسكاً ، وقدر إنشاء الورى طينا
 أو صاغه ورقاً محضاً ، وتوجه
 من ناصع التبر إبداعاً وتحينا
 إذا تأوّد آدته رفاهية
 'قوم' المقود ، وأدمته البرى لنا (٣)

(١) عنى : أم' وأضنى

(٢) الفب : الزايرة بعد أيام (المتقطعة) .

(٣) تأوّد : تشنى وتسايل . آدته : أثقلته . قوم المقود : حنود
 مزدوجة من اللؤلؤ . البرى : الخلاخيل .

كانت له الشمس ظُثراً في أكلته
 بل ما تجلّى لها إلا أحيينا^(١)
 كأنما أثبتت في صحن وجنته
 زُهر الكواكب تعويذاً وتزيينا^(٢)
 ما ضرّ أن لم نكن أكفاءه شرفاً
 وفي المسودة كافٍ من تكافينا
 يا روضة طالما أجنّت لواحظنا
 ورداً جلّاه الصبا غصّاً ونسرينا^(٣)
 ويا حبيسة قلّينا بزهرتها
 منى ضروباً ولذات أفانينا^(٤)

-
- (١) ظُثراً : مرضعة . الأكلة : السناثر الرقيقة (جمع كلة) .
 (٢) زهر الكواكب : النيرة المشرقة (جمع أزم) .
 (٣) أجنّت لواحظنا : جعلتها نجوى وتقطف . النسرين : فروع من
 الورد أكثر ما يكون أبيض الزمر عطر الرائحة .
 (٤) قلّينا : قلنا . ضروباً : أوانينا : أوانها . المنى :
 جمع منية .

وبأ نعيماً خطرتا من غضارته
 في وشي نعيمى سحبتنا ذيله حيناً (١)
 لسننا نسميك إجلالاً وتكرمة
 وقدرك المعتلى عن ذاك يغنيننا
 إذا انفردت وما شورك في صفة
 فحسبنا الوصف إيضاحاً وتبييناً
 يا جنة الخلد أبذلنا بسدرتها
 والكواثر العذب زقوماً وغسلينا (٢)
 كأننا لم نبت والوصل ثالثنا
 والسعد قد غض من أجفان واشينا
 إن كان قد عز في الدنيا اللقاء بكم
 في موقف الحشر نلقاكم ويكفيننا

(١) غضارته : نضارته وورقه والنمة والسمة . الوشي : نوع من
 الثياب الحريرية المنقوشة .
 (٢) سدرتها : أي سدرة المنتهى ، شجرة عن يمين العرش في السماء .
 الزقوم : شجرة في جهنم منها طعام أهل النار . القسطين : ما يسيل من
 جلود أهل النار .
 ويروى البيت : بسلسلها بدلاً من بسدرتها ، ومعناه : السماء العذب
 الباردة .

سرّانٍ في خاطر الظلماء يكتمننا
حق يكادَ لسانُ الصبح يفشينا (١)
لا غرو في أن ذكرنا الحزن حين نهت
عنه النهى وتركنا الصبر ناسينا

لوحة وأسى :

إنا قرأنا الأسى يوم النوى سوراً
مكتوبةً وأخذنا الصبر تلتقينا
أما هواءك فلم نعدل بمنهله
شرباً ، وإن كان يروينا فيظميننا (٢)
لم نجف أفق جبالٍ أنت كوكبُ
سالينٍ عنه ، ولم نهجره قالينا (٣)
ولا اختياراً تجنبناه عن كتبٍ
لكن عدتنا على كرمٍ عوادينا (٤)

(١) يفشينا : يفضعنا ويشي بنا ويمرضنا للأنظار .

(٢) الشرب : المورد المذب الماء .

(٣) لم نجف : لم نفارقه ونبتعد عنه كراهية . قالينا : أي مبغضينا .

(٤) عن كتب : عن قرب . عدتنا الموادي : أي صرفتنا وشغلنا
أحداث الدهر وصروفه .

نأسي عليك إذا 'حشئت مشعشة'
فينا الشمولُ وغنّانا مغنينا (١)
لا أكّوس الراح تبدي من شمائلنا
سما ارتياح، ولا الأوتار تلهينا

نداء أخير :

دومي على العهد — ما دمنا — بحافظة
فالحرّ من دان إنصافاً كما دينا
فما استعضنا خليلاً منك يحبسنا
ولا استفدنا حبيباً عنك يثني (٢)
ولو صبا نحونا من 'علور' مطلع
بدر الدجى لم يكن حاشاك يُصبينا (٣)
أولي وفاء وإن لم تبدلي صلة
فالذكر 'يقنعنا' ، والطيف 'يكفي'نا

(١) مشعشة : مزوجة بالماء . الشمول : من أساء الحر .
(٢) استعضنا : استبدلنا . يثني : يردنا ويصرفنا ويروي : يثني
بدلاً من يثني .
(٣) صبا : مال . يصبينا : يجعلنا نشفق ونهم به .

وفي الجواب متاع إن شفعتِ به
بيض الأيادي ، التي ما زلتِ قولينا^(١)
عليك منّا سلام الله ما بقيتِ
صباة بك 'تحفيا ، فتحفينا^(٢)

(١) قولينا : تعطين وتنجين . ويرى : اقتناع بدلا من متاع .
(٢) الصباة : الشوق والولع الشديد . ويرى : صباة منك بدلا من
صباة بك .

يا ليلُ الصب متى غده ؟

للخُصري القيرواني

وهذه قصيدة من عيون الشعر العربي ، ذاعت شهرتها في
أندية الأدب ومجالس الفناء وتناقلها الناس جيلا بعد جيل ،
ولشهرتها ودورانها ، فقد عارضها شعراء كثيرون في عصور
متتابة ، كل منهم يحاول أن يتجاوزها فتنًا وشاعرية ، ومن
أشهر الذين عارضوها : أحمد شوقي شاعر العصر الحديث ،
بقصيدته التي يقول فيها :

مضناكَ جفاه مرقدهُ

وبكاهُ ورخشم عودهُ

والتي ذاعت هي الأخرى واشتهرت في أندية الأدب ومجالس
الفناء ، وتناقلها الناس ، وأخذوا يوازنون بينها وبين قصيدة
الخصري ، ولهم في هذه الموازنات دروب وفنون ، وأحاديث
ذات شجون .

تلك هي قصيدة « يا ليل الصب » للشاعر الضريح الحضري القيرواني ، وهو أبو الحسن علي بن عبد الغني الحضري ، ولد في القيروان عام أربعمائة وعشرين من الهجرة ، وقضى فترة من صباه وشبابه في القيروان ، ثم غادرها وهو على مشارف الثلاثين بعد أن أجاد فن الشعر وعلم القراءات ودرس الدين والشريعة . وكان خروجه من القيروان بعد نكبتها التي خربتها سنة أربعمائة وتسع وأربعين في أعقاب الخلاف الذي نشب بين الفاطميين والمعتز بن باديس والذي أدى إلى انقضاء قبائل بني هلال وبني سليم على القيروان ، فتشتت أهلها منها ، وخرج أدباؤها وعلمائها ، فمنهم من ذهب إلى صقلية كابن رشيق ، ومنهم من توجه إلى الأندلس كابن شرف القيرواني ، أما الحضري فكان خروجه إلى « سبته » ، فاستقر بها زماناً .. واتصل في الأندلس بعدد من الأمراء مادحاً ، واثلاً للجوائز وهباتهم وعطاياهم .

ثم عاد الحضري من الأندلس إلى المغرب ، غير أنه استقر في مدينة طنجة ، حتى كانت وفاته سنة أربعمائة وثمان وثمانين من الهجرة .

يقول عنه ابن بسام في كتابه « الذخيرة » : كان أبو الحسن الحضري بجرّ براعة ورأس صناعة وزعيم جماعة ، وقد طرأ على الأندلس منتصف المائة الخامسة من الهجرة بعد خراب وطنه القيروان ، والأدب بأفق الأندلس يومئذ ، نافق السوق ،

مغمور الطريق ، فتهاذاه ملوك الطوائف تهادي الرياض بالنسيم ،
وتنافسوا فيه تنافس الديار بالأنس المقيم .

ولكنه فيما نقل لم يطمئن هناك ، فاحتمل على مضض بين
زمانه ، وبُعْدَ قطره ، ثم اشتملت عليه مدينة طنجة بعد
خلع ملوك الطوائف وتوفي بها رحمه الله .. وهو القائل :

أقول له وقد حيا بكأس

لها من ميسك رقته ختام

أمن سخديك تُعصر ؟ قال : كلا

مق عُصرت من الورود المدام

ويروون - أيضاً - أنه كان خبيراً بأسرار اللغة العربية ،
فإن تأليفه في علم القراءات تدل على ذلك ، وأنه كان بصيراً
بشئون الحياة ، فإن في الاغتراب وصُحبة الأمراء والملوك
عوناً على فهم دقائق الوجود ..

* * *

والقصيدة التي نطالعها الآن هي أشهر قصائد الحصري ،
وقد تناول فيها الشاعر بأسلوبه المهف ولغته الرقيقة شؤوناً
شتى مما يدور عادة على لسان المحبين ، ويفضح أسرار نجاوهم
ويمكنون قلوبهم .. نكلثم عن طول الليل ، وطيف الخيال ،
وخر الرضاب ، وسيف المقلعة وجناية العين وحرمة الخد
واستعطاف الحبيب وفناء الحب . كل ذلك في إطار من

الشاعرية الصادقة ، والتعبير البليغ الموحى ، والخيال السامي
الطليق .

يقول الحصري في قصيدته : « يا ليلُ : الصبُّ متى
غدُهُ ؟ » .

يا ليلُ : الصبُّ متى غدُهُ ؟
أقيامُ الساعةِ موعدهُ (١)
رقدَ السَّارُ فأرقَّه
أسفُ البينِ يُردِّدُهُ (٢)
فكاهُ النجمُ ورقٌ له
مما يرعاهُ ويرصدُهُ
كلِّفُ بغزالٍ ذي هَيْفٍ
خوفُ الواشينِ يُشرِّدُهُ (٣)
نصبتُ عيناى له شركاً
في النومِ فعزُّ تصيِّدُهُ (٤)

(١) الصب : العاشق المستهام .

(٢) البين : الفراق والبعاد .

(٣) كلِّف : مولع ومتحم ، الهيف : رقة الخصر وضمور البطن ورشاقة
القوام . يُشرِّدُهُ : يبعده ويحمله لا يقرُّ في مكان .

(٤) الشرك : حبالل الصيد ، المصيدة . عز : امتنع وصعب .

وكفى عجباً أني قنصٌ
 للشرِّبِ سباني أغيدُهُ (١)
 صنمٌ للفتنة منتصبٌ
 أمواه ولا أتعبدُهُ (٢)
 صاح ، والخرُّ جنى فيه
 سكران اللحظِ معبدُهُ (٣)
 ينضو من مقلته سيفاً
 وكان نعاماً يفتدُهُ (٤)
 فيريقُ دمَ العشاق به
 والويل لمن يتقلدُهُ (٥)
 كلا ، لا ذنبَ لمن قتلت
 عيناه ، ولم تقتل يدُهُ

* * *

-
- (١) قنص : صياد . سباني : صادي وأسرني بحسنة . الأغيد : الناهم
 المثني . المقصود به الحبيب .
 (٢) صنم للفتنة : ثقال للفتنة .
 (٣) جنى له : ثروة له . اللحظ : باطن العين .
 (٤) ينضو : يستل ويترع .
 (٥) يريق : يسفك ، يتقلده : يحمله .

يَا مَنْ جَعَدْتُ عَيْنَاهُ دَمِي
 وَعَلَى خَدَّيْهِ تَوَرُّدُهُ (١)
 خَدَّكَ قَدْ اعْتَرَفَا بِدَمِي
 فَعَلَامَ جَفَوْنِكَ تَجَعَّدُهُ
 إِنِّي لِأَعِيدُكَ مِنْ قَتْلِي
 وَأُظَنُّكَ لَا تَتَعَمَّدُهُ (٢)
 هَبِ الْمَشْتَاقَ كَرِّى
 فَلَمْلُ خِيَالِكَ يَسْمُدُهُ (٣)
 مَا ضَرَّكَ لَوْ دَاوَيْتَ ضَنْتِي
 صَبْرَ يَضْنِيكَ وَتَبَعَّدُهُ
 لَمْ يُبْقِ هَوَاكَ لَهُ رَمَقًا
 فَلَيْبِكَ عَلَيْهِ عَوْدُهُ (٤)
 وَغَدَاً يَقْضِي أَوْ بَعْدَ غَدٍ
 هَلْ مِنْ نَظَرٍ يَقْوَدُهُ (٥)

-
- (١) جَعَدْتُ : أُنْكَرْتُ . تَوَرُّدُهُ : احْمَرَّادُهُ ، وَالْقَصْرُودُ الْإِشَارَةُ إِلَى
 حِمْرَةِ دَمِ الْعَاشِقِ الْمَقْتُولِ .
 (٢) أَعِيدُكَ : أَرْهَقُكَ .
 (٣) هَبِ : اْمْنَحْ ، الْكَرِّى : النَّوْمُ .
 (٤) عَوْدُهُ : جَمْعُ هَائِدٍ ، زَائِرُ الْمَرِيضِ .
 (٥) يَقْضِي : يَهْلِكُ وَيَمُوتُ . يَقْوَدُهُ : يَسْتَمْتِعُ بِهِ وَيُنَالُهُ .

يا أهلَ الشوق لنا شَرَقُ
 بالدمع يفيضُ مُورَدُهُ (١)
 بهوى المشتاق لقاءكمو
 وصروف الدهر تبعدُه (٢)
 ما أحلى الوصلَ وأعذبَه
 لولا الأيـامُ تُنكده
 بالبين وبالهجرانِ ، فيا
 لفؤادي .. كيف تجلدهُ ! (٣)

-
- (١) يَشْرُقُ بالدمع : يفيض ويختنق .
 (٢) صروف الدهر : أحداثه ونوائبه .
 (٣) تجلده : تحمله وتصبره .

صلوات في هيكل الحب

لأبي القاسم الشابي

لعلها أشهر قصائد الحب في الشعر العربي الحديث كله .

وهي شهرة لم تنلها بين شدة الأدب ومحى الشعر، إلا بقدر ما كانت صيحةً جديدةً في عالم التعبير الشعري عن تجربة الحب .. وكانت جدتها وأصالتها وإيقاعها الموسيقي المتناغم هي حيثيات ذبوعها وانتشارها وحفظ الكثيرين لها .

تلك هي قصيدة « صلوات في هيكل الحب » للشاعر التونسي الخالد أبي القاسم الشابي .. الذي عبر سمىء الشعر العربي ، شهاباً مباغتاً ، لم يكد نوره يشع ويسطع ، حتى اختطفته يد المنون في ريعان الشباب ، وهو لم يجاوز من العمر خمسة وعشرين ربيعاً ، فانطفأ الشهاب الساطع ، وسكت الوتر الجديد المتفرد .

ولد أبو القاسم عام ١٩٠٩ لأبٍ من علماء الدين هو الشيخ

محمد بن بلقاسم الشابي سليل أسرة « الشابية » التي واهبت حياتها للعلم ، بعد أن أنجبت - في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين - كوكبة من حملة القلم والسيف ، امتلأ بهم التاريخ التونسي . . وكان الأب من خريجي الأزهر الشريف ، به درس أول الأمر مقيماً في مصر سبع سنين ، ثم درس بجامعة الزيتونة في تونس سنتين أخريين حصل بعدها على شهادة « التطويب » - وهي شهادة إتمام الدراسة بالكلية الزيتونية آنذاك - ثم عيّن قاضياً شرعياً بعد عام واحد من مولد ابنه الأكبر أبي القاسم ، فتصرف في قضاء كثير من البلدان التونسية . وإلى هذا الأب ، يعود الفضل في التكوين الفكري والخلقي الذي أتبع لأبي القاسم . وفي ذلك المناخ الوادع الهادي ، فتفتحت مداركه واستيقظت أعماقه ، ووجد في صداقته لأبيه نعم المعين على فهم ما حوله والتطلع إلى الخبيء الذي لم يتكشف بعد .

يقول أبو القاسم عن أبيه : « لقد أفهمني معاني الرحمة والحنان ، وعلمني أن الحق خير ما في هذا العالم وأقدس ما في هذا الوجود » .

ثم يتاح لأبي القاسم خلال سنوات عمره الباكر لون من الرحيل والتطواف والتنقل لازم الأسرة عشرين عاماً ، ضربت خلالها في البلاد التونسية طولاً وعرضاً ، متنقلة من « قابس » إلى « سليانة » ، « فتالة » ، ومن « مجاز الباب » إلى « رأس

الجبل ، « فزغوان » ، وواعية شاعرنا الملهم تلتقط وتخزن ،
وترى وتأمل ، وتفتح وتكتمل ، وتمتلئ بسحر ألوان الطبيعة
التونسية ، وتنوع لهجاتها ، واختلاف عاداتها ، وتعدد بيناتها ،
ثم هو ينقل بصره بين غابات الصنوبر والشجيرات الراقدة على قمم
الجبال ، متأملا حياة الرعاة في الوديان ، بين شياهم وأغنامهم
وقطعانهم ، يعيشون حياة الفطرة والبساطة ، وحياة من
استوطنوا المدن وابتلوا بشرور ما حملته المدنية إليهم من زيف
ومجاعة لطبيعة العصر وفساد في الخلق والطباع .

وتمتلئ وجدان الشاعر الصغير السن ، ويتضخم رصيده
من تجربة الحياة ، ويتدفق معين شاعريته ، وتردده ريشته ،
فتبدع أجمل الألوان واللوحات ، وتشدو قيثارة بأعذب
ما عرفه شعرنا الحديث من أنغام ، تتجه كلها صوب الحب
والطبيعة والنفس الانسانية المعذبة ..

درس الشابي في جامع الزيتونة وهو في الثانية عشرة من
عمره ، واكتملت له صول الثقافة العربية وينابيع التراث العربي
في أزهى عصوره ، بالإضافة إلى اطلاعه على روائع الأدب
العربي الحديث في مصر والمراق وسوريا والمهجر ، وبدأ
شعره يصافح الأسماع عام ١٩٢٣ وهو في الرابعة عشرة من
عمره ، وسرعان ما تأكد نبوغه المبكر ، ونضجه الشعري
الخارق ، وقوات قصائده ، في مجلة « النهضة » التونسية ،
ثم في مجلة « أبولو » المصرية التي كان يصدرها الدكتور أحمد

زكي أبو شادي ، والتي كانت سفيراً للذوق الشعري الجديد في الوطن العربي ، وللقلم الفنية الجديدة ، داعية لها ومبشرة بها ، ولأبولو يرجع الفضل في ذبوع شهرة الشابي ، على مستوى الوطن العربي كله ، وتأكيده منزلته الشعرية بين شعراء جيله ، طليعة ورائد ، وشهاباً ساطعاً متفرداً ، ووطنياً شادياً بأجل وأعذب ما ألهمته إلهة الشعر ..

وينكب الشاعر بوفاة والده ومعلمه وصديقه عام ١٩٢٩ ، فتنوء حساسيته الشديدة بوقع الكارثة ، ثم يضطلع بأعباء الأسرة الكبيرة ويختار الطريق الوعر - رافضاً باب الوظيفة الحكومية - مؤثراً حياته البسيطة على رأس أسرته في « توزر » حيث تزوج ..

وفي السنة نفسها يصاب الشابي بداء تضخم القلب ، وهو ابن الثانية والعشرين ، وينهاه الطبيب عن الإرهاق النفسي والفكري ، خاصة عن الانفعال الشعري المتقد ، لكنه لا يبالي بنصائح الطبيب ، ويواصل إنتاجه شعراً ونثراً ، ويصبح حديث الأوساط الأدبية في كل الوطن العربي مشرقه ومغرب ، بل إن الدكتور أحمد زكي أبو شادي - أمين جماعة أبولو - يكل إليه كتابة تصدير ديوانه « ينبوع » .

وفي صيف ١٩٣٤ يشرح الشاعر المريض المرهق في جمع ديوانه « أغاني الحياة » على أمل أن يطبعه في مصر ، لكن المنية تباغته بعد أن اشتد به المرض ، ويموت في مدينة تونس

فجر ٩ أكتوبر ١٩٣٤ ثم ينقل جثثه إلى بلدته « توزر »
حيث قبره .

يقول عنه معاصروه وأصدقاؤه : « كان نحيف الجسم ،
مديد القامة ، قوي البدنية ، سريع الانفعال ، حاد الذهن ،
تكفكف رقة طبعه من غرُب عاطفته (حدة عاطفته)
وحدة ذهنه ، يراه أصدقاؤه بشوشاً كريماً وديماً متأنقاً طروباً
لمجالس الأدب يحب الفكاهة الأدبية ، و يراه من لم يخالطه حبيّاً
محتشماً ، ويعرف منه هؤلاء وأولئك صراحة حازمة قوية
يُبدىها لخاصة خلطائه في غير ما تخرج متى اجتمع بهم ، ويحاور
بها العامة في شعره ونثره . وكان محباً لبلاده صادق الوطنية ،
يفيض وجدانه بآمال بلاده وآلامها ، ويؤمن بأن لقادة الفكر
رسالة إنسانية سليمة حاول جهده أن يحققها خلال حياته
القصيرة - كالشهاب - قولاً وعملاً .. »

* * *

والقصيدة التي نطالعها الآن لأبي القاسم الشابي ، قرأها
الناس لأول مرة في مجلة أبولو التي ظلت تصدر بين عامي
١٩٣٢ ، ١٩٣٤ في القاهرة ، وسرعات ما جذبت الاهتمام
وشدت الأنظار إلى هذا الور الجديد ، وهذه اللغة الشعرية
الجديدة ، وهذا التناول الجديد لتجربة الحب في الشعر الحديث
بصورة غير مسبقة ؛ في إطار من الخيال العالي الممنح ، يمتح
من أصول بيئته التونسية الجميلة ، ويوشي مواكب شعره بصور

أخاذاة فائنة . ودهش الشعراء والأدباء والقراء لهذه اللوحة
الشعرية الفاتنة التي استطاع الشابي - في اقتسار وأصالة
ويمكن - أن يرسمها لمحبيته ، وأن يجعل منها كائناً سماوياً
يفيض رقة وطهراً وشفافية ، بل ملاكاً من ملائكة الفردوس
يحيي في الأرض روح السلام والمحبة ، وربيعاً تختضب به
الدنيا ، وتفتق على موكبه الحياة ، وتنقشي روحه الكثيرة
الحزينة بالحب وتشدو كالبلبل الفريد ، وينطلق من جديد
طموحه ونبضه وتوجهه ، ويحيا فيه ما كان قد جف ومات
من عذاب الأماني وحلو التفريد ، فهي روح الربيع وهي
أنشودة الأناشيد وهي سحر الشباب ، وهي موسيقية اللغات
والخطوات ، وهي هي الحياة في أجل صورها وأنضرها
وأحفلها بالبهجة والأمل والاشراق ، وهي فوق حدود الخيال
والشعر والفن ، وهي قدس الشاعر ومعبده وصباحه وربيعه
ونشوته وخلوده .. وهي معبوده الذي يخشع دوماً لروعته
وجلاله وجماله ..

فهل رأى الناس - قبل الشابي - محبوبة على هذه الصورة
الفاتنة ، الأسرة ، المكتملة لوناً ونغماً وعطراً ؟ وهل عرف
شعرنا العربي قبل هذه القصيدة الفاتنة ، مثل هذا الافتنان في
رسم ملهمة الشاعر وتجسيدها باعتبارها كل ما حوله من جمال :
الطبيعة والكون والوجود والربيع والصباح والدفء والحياة
والنجوم والطهارة والأناشيد والموسيقى والنشوة والخيال !

ونتأمل القصيدة ، فيأسرنا هذا النفس الشعري النامي
المطروح ، وهذه الموسيقى المتلاحقة المناسبة ، وهذه الصور
الشعرية الفاتنة المعبرة ، وهذا العشق الصادق العنيف ، لكنه
عشق طاهر نقيّ يذكرنا بعشق العذريّين أمثال: قيس وجميل
وعروة وأضرابهم .. بل إنه ليذكرنا بعشق المتصوفة ، الذين
تقافوا في حبهم ، وامتزج فيه العاشق والمعشوق ، والإنسان
بالحقيقة الكلية المطلقة ، وبلغوا مرتبة الحلول عشقاً وصعوداً
ووصولاً إلى حيث سلام الطمأنينة ، وقديسة الوصال .

ويختتم الشابي رائعته بصلاة شعرية حسّاسة ونداء هامس
آسر، يتوجه به إلى حبيبته التي يشيد سحر عينيها جمال كونه
والتي يفجر لإلهام حسناتها حقيقة عالمه ، يسألها ألا تهدم ما شاده
الحسن في فؤاده من عوالم غنية خصبة وبخالات عذبة مؤنسة ،
وآلا تسحق آمال نفسه المتطلعة إلى حياة هائلة وادعة في ظل
من تحب وتهوى .

والآن إلى قصيدة الشابي :

صلوات في هيكل الحب

عذبة أنت :

عذبة أنتِ ، كالطفولة ، كالأحرار
سلام ، كاللحن ، كالصباح الجديد
كالسما الضحوك ، كالليلة القمر
سراء ، كالورد ، كابتسام الوليد^(١)
يا لها من وداعة وجمال
وشباب منعّم أملود^(٢)
يا لها من طهارة تبعث التقدير
سديس في مهجة الشقي العنيد
يا لها رقة تكاد يرفّ الـ
سورد منها في الصخرة الجليثود^(٣)
أي شيء 'تراك ؟ هل أنت و فينو
س « تهادت بين الوري من جديد^(٤)

(١) القمراء : المعمرة ، المضيئة بنور القمر .

(٢) الأملود : الناعم .

(٣) الجليثود : الصلابة القاسية .

(٤) فينوس : إلهة الجمال في الأساطير اليونانية .

لتميد الشباب والفرح الم
سول للعالم التيس المبيد^(١)
أم ملاك الفردوس جاء إلى الأر
ض، ليحيي روح السلام المبيد^(٢)

أنت ما أنت ؟

أنت ما أنت ؟ أنت رسم جميل
عبري من فن هذا الوجود
فيك ما فيه من غموض وعمق
وجال مقدس معبود
أنت.. ما أنت ؟ أنت فجر من السح
ر، تجلّي لقلبي الممبود^(٣)
فأراه الحياة في موق الح
ر، وجلّي له خفايا الخلود^(٤)

(١) المبيد : المضي .

(٢) المبيد : القديم ، العريق .

(٣) الممبود : الذي يثبه العشق والخيال .

(٤) موق : نضر . جلّي : كشف وأظهر .

أنت روح الربيع ، تختال في الدف
بما فتهز رائمات الورود
وتهب الحياة سكرى من العط
ر ويدوي الرجود بالتفريد (١)
كلما أبصرتك عيناى تشي
نَ بخطنوى موقع كالنشد
خفق القلب للحياة ، ورف الز
هرُ في حقل عمري المجرود (٢)
وانتشت روحي الكثبية بالحب
وغنت كالبلبل الغريد (٣)
أنت تحيين في فؤادي ما قد
مات في أمسي السعيد الفقيد
وتشيدن في خرائب روحي
ما تلاشى في عهدي المجدود (٤)

(١) يدوي : يسمع له صوت . الدوي : الصوت والرنين والصدى .

(٢) المجرود : القفر الذي لا نبات فيه .

(٣) الغريد : الشادي .

(٤) المجدود : المخطوط . التَّمَم .

من طموحٍ إلى الجمال إلى الفن
 إلى ذلك الفضاء البعيد
 وتبشّين رقصة الشوق والأحلام
 والشدور والهوى في نشيدي^(١)
 بعد أن عانقتُ كآبة أبا
 مي فؤادي وألجمتُ تغريدي^(٢)
 أنت أنشودة الأناشيد غنّا
 لكِ إلهُ الغناء رب القصيد
 فيك شبّ الشباب وشجعه السحر
 وشدّوا الهوى وعطر الورد^(٣)
 وتراءى الجمال يرقص رقصاً
 قدسياً ، على أغاني الوجود
 وتهادت في أفق روحك أوزا
 ن' الأغاني ورقة التغريد
 فتأملت في الوجود كلحن
 عبقرى الخيال حلو النشيد

(١) الشدور : الغناء .

(٢) ألجمت : أسكت وأخربت .

(٣) وشجعه : رثته .

خطواتُ سكرانة بالأنابيب
 دِ وصوت كرجع نايٍ بعيدٍ (١)
 وقوام يكاد ينطق بالأل
 حاثٍ في كلِّ وقفةٍ وقعود
 كلُّ شيءٍ مُوقعٍ فيكِ حتى
 لفتة الجيد واهتزاز النهود (٢)
 أنتِ .. أنتِ الحياة في قُديها السا
 مي وفي سحرها الشجيّ الفريدِ
 أنتِ .. أنتِ الحياة في رقة الفج
 ر وفي رونق الربيع الوليد (٣)
 أنتِ .. أنتِ الحياة كلُّ أوانٍ
 في رواءٍ من الشباب جديدٍ (٤)
 أنتِ .. أنتِ الحياة ، فيك وفي عيد
 يلكِ آيات سحرها الممدود

(١) الرجوع : الصدى .

(٢) مرقّع : منقش . الجيد : العنق . النهود : جمع نهد ، الصدر .

(٣) الرونق : البهاء والنضرة .

(٤) الرواء : البهاء والحسن .

أنتِ .. دنيا من الأناشيد والأحلام
والسحر والخيال المديد
أنتِ فوق الخيال والشعر والفن
وفوق النهى وفوق الحدود^(١)
أنتِ قدسي ومعبدي وصباحي
وربيعي ، ونشوتي ووجودي

يا ابنة النور :

يا ابنة النور إنني أنا وحدي
مَن رأى فيكِ روعة المعبود
فدعيني أعيشُ في ظلك العذ
ب وفي قربِ حسنك المشهود
عيشةً للجمال والفن والإلهام
والطهر والسنا والسجود^(٢)
عيشةً للناسكِ البتول يناجي الر
بُ في نشوة الدهول الشديد^(٣)

(١) النهى : المعقول .

(٢) السنا : الاشرار واللعان والاضاءة .

(٣) البتول : المتقطع عن الدنيا الى الله ، والمتقطع عن الزواج .

وامنحيني السلامُ والفرح الروحي
 حيّ يا ضوءَ فجرِي المنشود^(١)
 وارحميني فقد تهدمتُ في كوارث
 من اليأس والظلام مَشِيد
 أنقذيني من الأسى ، فلقد أُمسيت
 لا أستطيع حل وجودي
 في شعابِ الزمانِ والموتِ أُمشي
 تحت عبءِ الحياةِ جَمّ القيود^(٢)
 وأماشي الورى ونفسي كالقُب
 سرّ ، وقلبي كالعالم المهدود^(٣)
 ظلمة ما لها ختام ، وهول
 شائع في سكونها المهدود
 وإذا ما استخففتي عبثُ النسا
 من تبسمت في أسى وجود^(٤)

-
- (١) المنشود : المرجو والتأمول .
 (٢) شعاب : جمع شُعب ، الطريق والمسلك .
 (٣) أماشي : أصانع .
 (٤) استخففتي : حلّني عن الجمود والبهو والطيش .

بسمة "مرّة" ، كافيّ أستلّ
 من الشوكِ ذابلات الورود^(١)
 وانفخي في مشاعري مرحّ اللذ
 يا وشدي من عزميّ الجهود^(٢)
 وابعشي في دمي الحرارة علتي
 أتغنى مع المنى من جديد
 وأبثّ الوجود أنفاساً قلب
 بليليّ ، مكبلٍ بالحديد^(٣)
 فالصباحُ الجميلُ ينعشُ بالدف
 حياة المخطّم المكدود^(٤)
 أنقذيني ، فقد سئمت ظلامي
 أنقذيني ، فقد مللت ركودي^(٥)

(١) أستلّ : انزع .

(٢) الجهود : المجهود ، التعب .

(٣) مكبلّ : مقيد .

(٤) المكدود : الشديد الارهاق والمهوم .

(٥) الركود : عدم الحركة وعدم التجديد والتغيير .

آه يا زهرقي :

آه يا زهرقي الجميلة لو تد
رين ما جدّ في فؤادي الوحيد
في فؤادي الغريب تخلق أحوا
ن^(١) من السحر ذات حسن فريد
وشعوس^(٢) وضياء ونجوم^(٣)
تنثر النور في فضاء مديد
وربيع^(٤) كأنه حلم الشا
عر في سكرة الشباب السعيد^(٥)
ورياض^(٦) لا تعرف الحلك الداء
جي ، ولا ثورة الخريف العتيد^(٧)
وطيور سحرية تتناغى
بأنشيد حلوة التفرسد

(١) سكرة : نشوة .

(٢) الحلك : الظلام .

وقصورٌ كأنها الشفق الخد
 ضوب أو طلعة الصباح الوليد^(١)
 وغيومٌ رقيقةٌ تنهـدي
 كأبـديد من نثار الورود^(٢)
 وحياةٌ شعريّةٌ هي عندي
 صورة من حياة أهل الخلود
 كلُّ هذا يشيده سحر عيني
 لك ، وإلهام حسنك المعبود^(٣)
 وحرامٌ عليك أن تهـدمي ما
 شاده الحسن في الفؤاد العميد^(٤)
 وحرامٌ عليك أن تسحـقي آ
 مال نفس تصبو لعميش رغيد^(٥)

(١) المصوب : المصبوغ بما يشبه لون الدم .

(٢) أبـديد : مزق متناثرة .

(٣) يشيده : يصنعه ، ويحققه .

(٤) العميد : التيم ، العاشق .

(٥) تصبو : تتطلع وتهفو .

مِنكَ تَرْجُو سَمَادَةً لَمْ تَجِدْهَا
فِي حَيَاةِ الْوَرَى وَبِحَرِّ الْوُجُودِ^(١)
فَالْإِلَهِ الْعَظِيمِ لَا يَرْجُمُ الْعَبْدُ
إِلَّا إِذَا كَانَ فِي جَلَالِ السُّجُودِ

(١) الْوَرَى : الْخَلْقُ .

القصر العاشق

للشاعر علي محمود طه

تسألني : وهل أحببتَ مثلي
وكم معشوقة لك أو خلية ؟
فقلت لها - وقد همت بكاسي
إلى شغقي راحتها النخيلة -
نسيتُ ، وما أرى أحببت يوماً
كحبك ، لا ، ولم أعرف مثيلة
فقلت لي ، جوابك لم يدع لي
إلى إظهار ما تخفيه حيلة
وفي عينيك أسرارٌ حيارى
تكذب ما تحاول أن تقولهُ
فقلت : أجل ، عرفتُ هوى الفواني
لكلِّ غايةٍ ولها وسيله

إذا طالعني أنسيتُ جرحي
وأن الحب لم يرحم قتيله
وجاذبني إلى اللذاتِ قلبُ
شقيّ ضلّ في الدنيا سبيله
وعدت كما ترين صريع كاسٍ
أنا الظلمات لم يطفئ غليله
فقلت : كيف تضعف ؟ قلت : ويحي
وكيف أطاع شمشون دليله ؟
فقلت : ما حياتك ؟ قلت : حلم
من الأشواق أوترُ أن أطيله
حياتي قصة بدأت بكأسٍ
لها غنيّتُ ، وامرأة جميلة !

أجل ، هذا هو مفتاح المفاتيح الى عالم الشاعر الملاح علي
محمود طه ، إلى أعماق وجدانه ، ومسارب قلبه ، وحقيقة
حبه ومعاناته ..

والمرأة في حياة علي محمود طه شيء أساسي ، لا غنى عنه ،
وبدونها لا يكون للحياة معنى ، ولا للفن حياة ، ولا للشعر
نوهج أو حرارة ..

لقد عرف شاعرنا المترف ، الكثير الأسفار ، الباحث
أبدأ عن الجمال ينشده ويتصيد ، عرف الكثيرات من كل
لون وجنس ، وذاق شق الطعوم والصنوف ، وارتطمت تجاربه
بعشرات النماذج الإنسانية ، بين شهوة الجسد ومودة الروح
ومتعة الصداقة وبراءة التعاطف والرعاية .

والدارسون لشعر علي محمود طه ، والمتأملون فيه ، يرون
أنه كان دائم البحث في جسد المرأة ، لأن فيه اللذة وقد
اقتترنت بعبادة الجمال ، كأنما المرأة - كانت بالنسبة إليه -
المعبر الرئيسي لكل شعور يبحث عن القيم الجمالية فيما وراء
الواقع الجامد وصوره الحسية ..

يقول عنه الناقد الراحل أنور المعداوي :

« هكذا كان علي محمود طه في حياته ، وهكذا كان في
شعره . لا تفرقة بين تذوق اللذة وبين تذوق الجمال ، ولا فصل
بينهما في عالم الشعور أو عالم المنظور ، لقد عشق المرأة في
صورة الجسد اللذيذ وعشق في الجسد اللذيذ صورة المعنى الجميل ،
ومن هنا امتزج الاحساسان في نفسه حتى لقد أصبحا وحدة
متماكة ليس إلى تجزئتها من سبيل ، إن فيه « الرجل » الذي
أقبل على المادة ، وإلى جانبه « الشاعر » الذي أقبل على
الروح ، وهما لوفان من الحب بينهما من القرب ما يلغي الفواصل
ولا يعترف بالأبعاد .. هناك رجل لا يستهويه من الزهرة غير
اللذة المجردة التي ينقلها إليه طيب الرائحة ، وهذا هو المزاج

العادي الذي يقصر التذوق على اللذة المادية، وهناك رجل آخر لا يقصر التذوق على مثل تلك اللذة ما دام إلى جانبها جمال تعشقه الروح ، لأن الزهرة عنده لونٌ وعطر ، لون يبهّر ، وعطر يفوح . وهذا هو المزاج غير العادي لأنه مزاج الفنان ، مثل ذلك الرجل الأول صاحب مزاج لا يمكنك أن تصفه بأنه مزاج رفيع ، لأنه يستقبل المشهد المادي ممثلاً في الزهرة بحاسة واحدة ، وكأن الحواس الأخرى قد فقدت وظائفها الرئيسية . هذه الحاسة الواحدة التي نعيشها هي حاسة الشم التي تبحث عن العطر ولا تبحث عن شيء سواه ، وسواء لديها وجدته في الزهرة أم وجدته في زجاجة العطر ما دامت كل منها تنفح الشعور بنشوة الرائحة . لو اشتركت عنده حاسة النظر مع حاسة الشم لفدت الزهرة في إحساس العين والأنف ، وهي كما قلنا لون وعطر ، ولتحول هذا الإحساس الخارجي بعد ذلك إلى إحساس داخلي هو في لغة النفس لذة وجمال ، وهنا نجد المزاج الفني المرفف عند الرجل الأخير .

في مقدمة قصيدة له بعنوان : « هي وهو » يقول علي محمود طه :

« جمعتهما المصادفة فأحسّا بذلك الانعطاف الروحي البريء الذي يقرب ما بين القلوب ويمزج بين الأرواح .. وأحسا بالهوة

المعيفة المريضة التي تفصل بينها ، فتحدث إليها عن ذلك الحب اليائس وأمله الممض ، وأن القدر لا يريد لها السعادة .

تري ، ما هي حقيقة تلك الفتاة التي أحبها علي محمود طه وأحبه وبعثت إلى لياليه بالسهد وإلى شعره بالحنين وإلى عينيه بالدموع ؟ وما هي حقيقة تلك الهوة المريضة التي يشير إليها ولا يفصح ، ويتحدث عنها ولا يبين ، تلك الهوة الرهيبة التي فطرت فاما لتلتهم أمله الكبير في امتداد الحياة ؟

يبدو من شعره في الحب - الذي يضم عصارة قلبه وخلاصة نفسه ووجدانه - أنه على كثرة الغاديات والرائحات من حوله كان يبحث عن امرأة معينة ، امرأة تملأ في قلبه مكاناً خاصاً ظل منذ الطفولة وهو شاعر ينتظر ضيفه الحبيب ، لقد لقي المرأة وهي في ثوب الخلية ، ولقي المرأة وهي في ثوب الصديقة ، ولكنه لم يلق المرأة وهي في ثوب الأم ، هذه المرأة التي يمكن أن تشغل البقعة الخالية في وجوده الداخلي بحنان الأمومة ، لكم بحث عن هذا النموذج الأنثوي الذي يسد فراغاً تركته الأم وهو صغير ، حتى لقد ظل يتطلع إليه بلهفة الطفل التي لم ينزعها من بين جنبي الرجل تعاقب الأيام . . فقد الشاعر أمه الحانية ، ففضى العمر يبحث عن ظلها في صورة زوجة ، زوجة تشاطره الحياة ، وتنسى الطفل الكبير أنه يتم !

والقصيدة التي نطالعها الآن للشاعر الملاح ، ليست قصيدة حب مباشرة ، بقدر ما هي لوحة فنية فاتنة ، وصورة شعرية نادرة ، رسمها الشاعر ، وافتن في إبداعها وإكسابها إيقاعها الموسيقي الموائم ، وجرسها المنشود ، وألوانها وظلالها الرائعة ، مخاطباً بها ذات الغلالة الرقيقة الناعمة تحت نافذتها المفتوحة في ليالي الصيف القمرية .

أول ما يشدنا في هذه القصيدة الجميلة موسيقاها الداخلية الأخاذة ، ليست موسيقى الرنين أو . رسيقى الألفاظ التي تخاطب الأذن ، ولكنها موسيقى الهمس الشعري تهز مسارب العاطفة وروافد الشعور ، اندفاعاً وتوقفاً ، انسياباً وتهديجاً ، وإسراعاً وإبطاءً ، ارتفاعاً أو انخفاضاً .. وفرق بين موسيقى تنقل للشعور المتلقي لحظة الغضب ، وموسيقى 'تمثل' لحظة الدهشة واللفة أو لحظة الأسى والحنين .

ثم هذا القمر العاشق ، يصوره الشاعر ويبدع في تصويره ، فإذا هو بالفعل عاشق يمتلئ حياة وصبوة واشتهاء ، يتسلل من نافذة المحبوبة يتأمل جسدها الفائق ويتحسس ، ويتوقف عند مواطن الفتنة فيه ، والشاعر يمتلكه الغيرة الجاحدة من هذا المتسلل الذي لا يملك له دفماً ولا رداً ، ومن هذا المتيثم الذي سباه جمال الفاتنة وكأنما أعطى جمالها من قوة التأثير ما استطاعت أن تفري به حتى الجهاد ، فإذا بالقمر - وهو

مَنْ هو رفعةٌ وسناءٌ وعلوٌ منزلةٌ ومكانٌ - أسيرٌ جاهلٌ ،
وعبدٌ فتنٌها ، وتابعٌ سلطانها ، تأمره وتتحكم فيه ، وتسببه
وتصبيه !

ونتابع مقاطع القصيدة لنصل إلى حيث يصور الشاعر
هيام القمر العاشق وقد حاول أن يقبل ثغر المحبوبة وأن
يلفّ نهداها وأن يضم الجسد .. فباءت محاولاته بالخيبة
والفشل ، ولم يصب منها شيئا ، وكان الشاعر يحاول أن يرضي
شعوره الدفين بالغيرة ، وأن يريح هواجس نفسه المشتعلة بالألم
وهو يرى القمر متسللا إلى حيث لا يستطيع هو أن يصل أو
يشاهد أو يلمس .

والآن ، مع القصيدة التي اخترناها من بين صفحات ديوانه :
« ليالي الملاح التائه » وهو ثاني دواوينه ، سبقه صدور ديوانه
الأول « الملاح التائه » ، ثم تتابعت دواوينه : « أرواح وأشباح »
و « أغنية الرياح الأربع » و « الشوق العائد » و « شرق وغرب »
و « زهر وخمر » ، حتى كانت وفاته عام ١٩٤٩ .

« القمر العاشق »

إذا ما طاف بالشرفة ضوء القمر المضئ
ورفء عليك مثل الحلم أو إشراق المعنى

وأنت على فراش الطهر كالزنبقة الوسي
فضمتي جسمك العاري وصوني ذلك الحنا

أغار عليك من سابٍ كأنَّ لضوئه حنا^(١)
تدقُّ له قلوب الحور أشواقاً إذا غنَّى
رقيق اللس عرييد بكل مليحة يُغنى
جريءٌ إن دعاه الشوق أن يقتحم الحصنا

تحدّر من وراء الغيم حين رآك واستأنى^(٢)
ومسّ الأرض في رفقٍ يشقُّ رياضها الغنّا
عجبتُ له وما أعجب كيف استلم الرصنا
وكيف تسوّر الشوك ، وكيف تسلّق الغصنا

(١) ساب : أسر بالحب. الحور : جمع حوراء . يقال : عين حوراء :
أي اشتد بياض بياضها وسواد سوادها .. وهذا من صفات الحسان .

(٢) تحدّر : نزل من علوه وارتفاعه . استأنى : ثأنى وقهل ورفق .

على خديك خمر صباية أفرغها دنًا (١)
 رحيق من جنى الفتنة لا ينضب أو يفتنى (٢)
 وفي نهديك طلسمان في حلقها افتنًا (٣)
 إلى كنزها المعبود بات 'يعالج' الرُدُنَا (٤)

أغار، أغارُ إن قبل هذا الثغر أو تنثى
 ولفَّ النهْد في لينٍ وضم الجسد اللدنا (٥)
 فإن لضوئه قلبا وإن لسحره جفنا
 يصيد الموجة العذراء من أغوارها وهنَّا (٦)
 وكم من ليلة لنا دعاء الشوق واستدنى

(١) الدن : الكأس .

(٢) الجنى : الثمار .

(٣) طلسمان : لفران .

(٤) الردن : أصل الكم ، وطرف الكم الراشح (أي أن القمر العاشق كان يحاول التسلل من داخل أكام الحناء) .

(٥) اللدن : اللين ، اللناعم .

(٦) أغوارها : أحماقها البعيدة . وهنَّا : ضيفًا ، كسولًا ، مترخيا ، أو هي بمعنى : الوقت بعد منتصف الليل .

جثا الجبارُ بين يديك طفلاً يشتكي القَبْصا (١)
أراد فلم ينل ثغراً ، ورام فلم يصب حَضْنا
حوكتك ذراعهُ رسماً ، وأنت حوَيْتَهُ فنّا

عصيت هواه فاستضرى كأنَّ بصدْرهُ جنّا (٢)
مضى بالنظرة الرعناء يطوي السهل والحَزْنا (٣)
يثيرُ الليلَ أحقاداً وصدْرَ سحابِهِ ضفنا (٤)
وعاد الطفلُ جبّاراً يهزُّ صراعُهُ الكونا

* * *

(١) القَبْص : الظلم .

(٢) استضرى : اشتعل وقمره واحتاج .

(٣) الرعناء : الحقاء أو الموجاء . الحَزْنا : المكان المرتفع الوعر من الأرض .

(٤) الضغن : الكراهية .

فردني الشرفة الحمراء دون الخدع الأسنى^(١)
وصوفي الحسن من ثورة هذا الماشق المضنى
مخافة أن يظنّ الناس في خدعك الظننا
فكم أقلقت من ليلٍ وكم من قمرٍ جئنا

(١) ردي الشرفة : أغلقها . دون الخدع : أي لتعجب هذا الخدع
وتخفيه عن الأنظار (حتى لا يراه القمر الماشق) .

[الأطلال]

للدكتور إبراهيم ناجي

« هذه قصة حب عاثر ، التقيا وتحاببا ، ثم انتهت القصة بأنها هي صارت أطلال جسد ، وصار هو أطلال روح ، وهذه الملحمة تسجل وقائعها كما حدثت . »

بهذه الكلمات ، يقدم الشاعر إبراهيم ناجي للمحمة الشعرية « الأطلال » ، التي يضمها ديوانه « ليالي القاهرة » ، ثاني دواوين الشاعر ، التي نُشرت في حياته ، أولها « وراء الغمام » صدر سنة ١٩٣٤ ، والثاني « ليالي القاهرة » صدر سنة ١٩٥١ ، أما الديوان الثالث « الطائر الجريح » فقد نُشر بعد أربع سنوات من وفاة الشاعر ، التي كانت في ٢٤ مارس عام ١٩٥٣ .

ولقد ظلت الأطلال عملاً شعرياً لا يعرفه إلا الخاصة من الدارسين وشدة الأدب ومتبعمي الشعر ، حتى أتيح لبعض

مقاطعها أن تصل إلى أسماع الملايين على متن صوت أم كلثوم ،
عند ذلك ذاعت شهرتها ، وتناقلتها الألسنة والأسماع ، وأصبحت
أشهر ما تبعه ذاكرة العامة من شعر ناجي .

أما صاحب الأطلال ، ففلم شعري بارز في حركة الشعر
المصري الحديث ، ورائد من رواد جماعة أبولو التي ازدهر
نشاطها بعد إنشائها عام ١٩٣٢ ، والتي كان يرأسها أمير الشعراء
أحمد شوقي ، ويتولى أمانتها الدكتور أحمد زكي أبو شادي ،
تلك الجماعة التي أسهمت بدور بارز في تطوير الشعر الحديث ،
وربطه بالوجدان الانساني ، وأصبح لها طابعها المتميز ، متمثلاً
في شعر طائفة من شباب الشعراء ، كان ناجي ألمهم شاعرية
وأكثرهم أصالة وتميزاً ، عرفوا بأصحاب الاتجاه الرومانتيكي
الفنائي ، وكان من بينهم أبو شادي وعلي محمود طه والمهمشري
وحسن كامل الصيرفي وزكي مبارك وأحمد رامي وصالح جودت
وآخرون .

والتأمل في شعر ناجي ، يطالعه - أول ما يطالعه -
هذا الطابع الحزين القاتم ، يضيف على قصائده مسحة من
الأسى والشعوب ، ويحمل هذا الطابع كل سمات الحزن
والانطواء والوجد والهيام والهروب والانطلاق والتمرد
والتعلق بالطبيعة والتشبث بالحب .

ولقد ساعدت حساسيته المفرطة ، ومزاجه الرومانتيكي ،
وبنيته الجسمية الضئيلة - فقد كان قصير القامة ضئيل الجسم
ساذج الملامح - ساعد ذلك كله في تأكيد هذا الحزن الكامن
في وجدانه ، المترسب في القرار البعيد من أعماقه ، مخلفاً
لديه شعوراً طفولياً ورغبة طفولية في أن يعاين ويداعب كل
من يصادف من النساء ؛ ويفتح وجدانه بالفعل لكل زهرة
أنثوية يلتقي بها ، وكأنه كان ينشد أبداً حبا لا يجده ولا
يصل إليه ، وتأكيداً لذاته كان يفتقده في نفسه ولدى الآخرين ،
وأنتى له - وهو على هذه الصورة - أن يكون فنى الأحلام
المرجو أو فارس النساء المعدود !

وفي قصيدته الطويلة ، أو ملحنته « الأطلال » كما يسميها ،
تطالعنا أيضاً خصائص فن ناجي وشاعريته : روح شعري
شفاف ، وصياغة بيانية مشرقة ، وتعبير آسر بالصورة الشعرية
المتنامية والمتآزرة وخيال مجنّح ، يصل بالتجربة الشعرية إلى
آفاق ونحوم لم تقتحم من قبل ، وقدرة خارقة على التصوير
والتجسيد والتجسيم ، وموسيقى شعرية تعصر وجدان المتلقي
وهو يطالع مقاطع القصيدة ، ويتنقل بين روافدها المتجمعة ،
ويستمع إلى صوت الشاعر الأسيان المفجوع في مواجهة إرادة
القدر وصوت القضاء ، ثم وهو يخاطب الريح التي كانت تغري
قلبه إغراء النصيح الفاجر باللسان والتأسي ، والريح هنا
- في هذه القصيدة - رمز للشياطين الحاقدة ، تنتهز الفرصة

لتسمى بنشر السموم ، ولكن هيهات ، فالشاعر مؤمن بقضائه
وقدره ، هذا القدر الذي تمثل له في وجه محبوبته ، شيء
خلق له من قبل أن يخلق هو ..

أيها الريح أجل ، لكننا
هي حبي وتعلّاتي ويأسي
هي في الغيب لقلبي خلقت
أشرقت لي ، قبل أن تشرق شمسي

وهو معترف بأن غرامه الحار المتوهج قدره في طعم
الموت ، قدر مشنوم ، حول عمره إلى مآتم ، ولم يترك له من
عمر البهجة وأعراسها ساعة واحدة :

يا ظراماً كان منشي في دمي
قدراً كالموت ، أو في طعمه
ما قضينا ساعة في عثره
وقضينا العمر في مآتمه

ولكنه ، بالرغم من ذلك كله ، متعاطف أشد التعاطف
مع صرعى القضاء ، وضحايا المقادير ، يذوب قلبه حنواً
وألماً ومشاركة :

أيها الشاعر : كم من زهرة
عوقبت ، لم تدر يوماً ذنبها !

فإذا عدنا الى الأطلال وجدناها صورة صادقة الملامح لقصة
الحب المأساوية ، الدامية الختام .. تتأوج مقاطعها بكل ما في
قصص الحب ، من تذكرة ولوعة وحسرة ، ومواقف انطلاق
وصبوة وغفلة عن فعل الزمان وتبدل الأيام ، وافتتان بالحب
ذلك الذي يرقى بالإنسان الى عالم أسنى وأسمى ، فيدمن الرقي
والطموح نحو سماء غير منظورة ، ويلتقي الحبيبان في قمتها
المنفردة ، ويبحران بسرّيهما ، ويريان الناس من تحتها ظلالاً
في السفوح ، وفجأة يتغير الحال ، وتعبث المقادير ، ويضرب
القضاء ضربته ، وسرعان ما يهوي التمثال الذي صنعه العاشق
لنفسه ، من أحلامه وأوهامه ومطامحه وأشواقه وتصوراته ،
من أسى حرمانه وعنفوان تطلّته ، ويصبح الحبيبان - في
غمضة عين - منفيّين في فيافي الحياة ، وصحرائها ، يراجهان
الأشواك والصخور ، والجذب والظلام والحظوظ السود والليل
الضريّر ، وقتلاً الهواجس نفس العاشق ، وتتعاور معه
الكائنات . ماذا عليه لو نسي أو قنّاسي ؟ ماذا عليه لو ودع
هذا الغرام اليائس وهذا الحب القاتم المدمر ؟ وتهمس الريح
في أذنيه بنصيحها الشرير : إن من حوله القلوب والنساء بعده
الرمّل ، فليتخير من يشاء ، وليبدأ من جديد صفحة حبه
الجديد ، وليؤمن من الآن أن الناس جميعاً من طين وماء ،
فأبناء السماء لا يعيشون على الأرض !

لكنّ الشاعر العاشق لا يستمع إلى هذا كله ، ولا يفتح له

نوافذ قلبه ، إنه مؤمن بقدره ، محتضن لقضائه ، مستسلم للنهاية
الأليمة الفاجعة :

فإذا أنكر خيل* خطئه*
وتلاقينا لقاء الغرباء*
ومضى كل* إلى غايته
لا تقل شئنا ، فإن* اللحظة شاء*

* * *

هذه هي الأطلال ، ملحمة ناجي ، ولوحة حبه الأخاذة
الرائعة ، الناطقة بقدرته الخارقة على التصوير والتجسيد ،
والتعبير عن المكنيات في صورة المحسوسات ، ورسم الجو
المعاطفي والنقسي المحيط بالمشهد في بكافة أبعاده وعناصره ،
وقدرته على توفير الايقاع الموسيقي المواكب لحركة النفس
والشعور بسطاً وانقباضاً ، إشراقاً وعتامة ، انطلاقاً وعبوساً ،
ثم على تنويع هذه الايقاعات كما فعل في المقاطع التي ضمنها
حديث الريح وممسها الى الشاعر عندما تخيلها تنصحه وتماتبه
على التآدي في الحب الممذب ، فقد صاغ الشاعر مقاطعه هذه
من بحر الرمل - الذي نظم منه قصيدته كلها - ولكن من
مجزوء البحر وليس من البحر بكامل تفاعيله ، فجاء هذا
التنوع الموسيقي انعكاساً للتنوع التعبيري والشعوري في مواقف
التجربة الشعرية ، ومفرقاً بين طبيعة الفقرات التي يتحدث

فيها الشاعر بنفسه ، والفقرات التي يترك فيها عنان
الحديث لغيره .

يبقى بعد ذلك أن نشير الى طبيعة هذا البحر الشعري
الذي صاغ منه ناجي ملحمة الشعرية : « بحر الرمل » ،
فالمعروف أنه من البحور الهادئة الموسيقى ، المموسة الإيقاع ،
الملائمة كل الملاءمة لمثل هذه التجربة الشعرية العميقة التي عبر
عنها ناجي أبجل تعبير ، وصورها أروع تصوير .

الأطلال

« هذه قصة حب عائر ، التقيا وتحابا ، ثم انتهت
القصة بأنها هي صارت أطلال جسد ، وصار هو
أطلال روح ، وهذه الملحمة تسجل وقائعها كما
حدثت . »

يا فؤادي ، رحم الله الهوى
كان صرحاً من خيال فهوى^(١)
أسقني واشرب على أطلاله
وارزق عنتي ، طالما الدمع روى

(١) الصرح : القصر أو البنيان العظيم الشاهق .

كيف ذاك الحب أمسى خبراً
 وحديثاً من أحاديث الجوى
 وبسائطاً من ندامى حُلُمٍ
 هم تواروا أبداً ، وهو انطوى

يا رياحاً ، ليس يهدا عصفها
 نضَبَ الزيتُ ومصباحي انطفأ^(١)
 وأنا أقتاتُ من وهمٍ عفا
 وأفي العُمَرَ لناسٍ ما وفى^(٢)
 كم تقلبتُ على خنجريه
 لا الهوى مال ، ولا الجفنُ غفا
 وإذا القلبُ - على خفرائه -
 كلما غارَ به النصلُ عفا^(٣)

(١) نضَب : نفذ وانتهى .

(٢) عفا : رحل وانقشع .

(٣) النصل : طرف الرمح أو السهم .

يا غراماً كان منّي في دمي
قدراً كالموت ، أو في طمعه
ما قضينا ساعةً في عرسه
وقضينا العمرَ في مائه
ما انتزاعي دمةً من عينه
واغتصابي بسةً من فيه
ليت شعري أين منه مهربي
أين يمضي هاربٌ من دمه ؟

لستُ أنساكِ وقد ناديتني
بفمٍ عذبٍ المناداة رقيقُ
ويدٍ تمتدُّ نحوي ، كبدٍ
من خلال الموجِ 'مدّت لفريق'
آه يا قبلةَ أقدامي ، إذا
شكّت الأقدامُ أشواكَ الطريق
وبريقاً يظلمُ الساري له
أين في عينيكِ ذبائكِ البريق؟^(١)

(١) الساري : المسافر ليلاً .

لست أنساكِ ، وقد أغريتيني
بالذرى الشم ، فأدمنت الطموح^(١)
أنتِ روحٌ في سمائي ، وأنا
لكِ أعلو ، فكأنني محضُ روح
يا لها من قممٍ كنتُ بها
نتلاقى ، وبسرّينا نبوح
نستشفُ الغيبَ من أبراجها
ونرى الناسَ ظلالاً في السفوح

أنتِ 'حسنٌ' في ضحاه لم يزل
وأنا عندي أحزانٌ 'الطُّفَل'^(٢)
وبقايا الظلّ من ركبٍ رحل
وخيوط النور من نجمٍ أفل
ألمح الدنيا بعيني سقيمٍ
وأرى حولي أشباحَ الملل

(١) الذرى الشم : القيم المرتفعة ، يقصد بها الآمال والأهداف
الرفيعة .

(٢) الطُّفَل : وقت الغروب .

راقصاتٍ فوق أشلاء الهوى
'ممولاتٍ فوق أجداث الأمل'^(١)

ذهب العمرُ هباءً ، فاذهبي
لم يكن وعدك إلا شبحاً
صفحة قد ذهب الدهر بها
أثبت الحبّ عليها ومحا
انظري ضحكي ورقصي فرحاً
وأنا أحل قلباً 'ذبحاً'
ويراني الناس روحاً طائراً
والجوى يطحنني طحن الرّعى'^(٢)

كنت ثقال خيالي ، فهوى
المقادير أرادت لا يدي
ويجتها ، لم تدر ماذا حطمت
حطمت قاجي ، وهذت ممبدي

(١) أجداث : قبور ، جع جدث . 'ممولات : باقيات بشدة .

(٢) الرعى : الطاحون .

يا حياة اليائس المنفرد
يا يباباً ما به من أحد^(١)
يا قفاراً لافحات ما بها
من نجي^(٢) ، يا سكون الأبد^(٣)

* * *

أين من عيني حبيبٌ ساحرٌ
فيه نبلٌ وجلالٌ وحياء
وائق الخطوة يثني مَلَكاً
ظالم الحُسن ، شهيء الكبرياء
عقبُ السحر كأنفاس الرّبي
سامُ الطرف كأحلام المساء
مشرقُ الطلعة ، في منطق
لغة النور ، وتعبير السماء

* * *

أين مني مجلسٌ أنتَ به
فتنةٌ قمتَ سناء وسنى

(١) اليباب : القفر ، الخراب .
(٢) نجي : أنيس ، رفيق يفضي إليه بالتجوى .

وأنا حبيبٌ وقلبٌ ودمٌ
وفراشٌ حائرٌ منكِ دنا
ومن الشوق رسولٌ بيننا
ونديمٌ قدّم الحُكاس لنا
وسقانا ، فانتفضنا لحظةً
لفبارِ آدميٍّ متنا (١)

* * *

قد عرفنا صولة الجسم التي
تحكم الحيّ ، وتطفئ في دماء (٢)
وسمعنا صرخةً في رعدِها
سوطُ جلّادٍ ، وتعذيبُ إله
أمرتنا ، فعصينا أمرها
وأبيننا الذلُّ أن يفشى الجباه
حكم الطاغى ، فكنتا في العُصاة
وطُردنا خلف أسوارِ الحياة

* * *

(١) الفبار الآدمي : يقصد به نشوة الجسد وشهوته .

(٢) صولة : سطوة وقهر وغلبة .

يا المنفيَّينِ ضلًّا في العصورِ
دميًا بالشوكِ فيها والصخورِ
كلما تقسو الليالي ، عرفًا
روعة الآلام في المنفى الطهورِ
طرُدا من ذلك الحلم الكبير
للحظوظ السود ، والليل الضرير^(١)
يقبسان النور من روجيهما
كلما قد ضنت الدنيا بنور^(٢)

* * *

أنتِ قد صيرتِ أمرِي عجبًا
كثرتِ حولي أطيَّار الرُبَى
فإذا قلتِ لقلبي ساعةً
قمْ نغرِّدْ لسوى ليلِ أبى
حجبٌ قأبى لعيني مأربا
غيرَ عينيك ، ولا مطلبًا

(١) الضرير : الأعمى ، والمراد به الشديد الظلمة

(٢) يقبسان : يستمدان ويستلهان .

أنتِ من أسد لها ، لا تدّعي
أنني أسدلتُ هذي الحجباً^(١)

* * *

ولكمّ صاح بي اليأسُ افتزعها
فبردُ القدرُ الساخر : دَعَهَا
يا لها من خبطةٍ عياء ، لو
أنني أبصر شيئاً لم أطعها
وليّ الويلُ إذا لبثتُها
وليّ الويل إذا لم أتبعها
قد حنّت رأسي ، ولو كلّ القوى
تشتري عزّة نفسي ، لم أبعها

* * *

يا حبيباً زرتُ يوماً أيكّة^(٢)
طائرَ الشوق ، أغنني ألمي^(٣)

(١) الحجب : الستائر والموانع .

(٢) الأيكّة : الشجرة الكثيفة المتلصقة . وهي رمز للكان الذي
يطل العشاق .

لَكَ إِبْطَاءُ الدَّلَالِ النَّمْعِ
 وَتَجَنُّبِي الْقَادِرِ الْمُحْتَكَمِ (١)
 وَحَنِيفِي لَكَ يَكْوِي أُعْظَمِي
 وَالثَّوَابِي جَرَاتٍ فِي دَمِي
 وَأَنَا مَرْتَقِبٌ فِي مَوْضِعِي
 مَرْمَقُ السَّمْعِ لَوْعِ الْقَدَمِ

قَدَمٌ تَخْطُو ، وَقَلْبِي مِثْلُ
 مَوْجَةٍ تَخْطُو إِلَى شَاطِئِهَا
 أَيَا الظَّالِمِ : بِاللَّهِ إِلَى كَمِ
 أَسْفَحِ الدَّمْعِ عَلَى مَوْطِئِهَا
 رَحْمَةً أَنْتَ ، فَهَلْ مِنْ رَحْمَةٍ
 لِفَرِيبِ الرُّوحِ أَوْ ظَامِنِهَا
 يَا شِفَاءَ الرُّوحِ ، رُوحِي أَشْتَكِي
 ظَلَمَ آسِيهَا ، إِلَى بَارِئِهَا (٢)

(١) تجنبي : ظلم وقسوة .
 (٢) الآسي : الطبيب ، والمداوي . البارئ : الخالق ، أو الذي ينقي
 من مرضه .

أعطني حريقى أطلق يديّ
لأنني أعطيتُ ما استقيتُ شيّ
آه من قيدك أدمى معصيتي
لم أبقيد ، وما أبقى عليّ ؟
ما احتفاظي بمهردٍ لم تصنها
ولامّ الأسرُ ، والدنيا لديّ (١)
هاأنا جففت دموعي ، فاعفُ عنها
لأنها قبلك لم تُبدل لحيّ

وهب الطائرَ من عُشِّك طارا
جففت الغدرانُ ، والثلجُ أغارا
هذه الدنيا قلوب جددت
خبث الشعلة ، والجمرُ قوارى
وإذا ما قبس القلب غدا
من رمادٍ ، لا تسله كيف صار (٢)

(١) الأسر : الحبس والسجن .

(٢) القيس : شعلة النار .

لا تسل ، واذكر عذاب المصطلي
وهو يذكيه ، فلا يقبس ناراً^(١)

لا رعى الله مساءً قاسياً
قد أراني كل أحلامي سدى
وأراني قلباً من أعبد
ساخراً من مدممي سخر العدا^(٢)
ليت شعري ، أي أحداث جرت
أزلت روحك سجناً موصداً^(٣)
صدت روحك في غيبها
وكذا الأرواح يملوها الصدا^(٤)

قد رأيت الكون قهراً ضيقاً
خيم اليأس عليه والسكوت
ورأت عيني أكاذيب الهوى
واهيات كخيوط العنكبوت

(١) المصطلي : من يوقد النار بقصد الاستدفاء .

(٢) سخر : سخرية .

(٣) موصداً : مغللاً .

(٤) الغيب : الظلام .

كنت ترثي لي ، وتدري ألمي
لو رثى للدمع تمثال صموت
عند أقدامك دنيا تلتهي
وعلى بابك آمال تموت

كنت تدعوني طفلاً ، كلما
ثار حي ، وتندت مقلي^(١)
ولك الحق ، لقد عاش الهوى
في طفلاً ، ونسا لم يعقل
وأرى الطعنة إذ صوبتها
فشت مجنونة للمقتل
رمت الطفل ، فأدمت قلبه
وأصاب كبرياء الرجل

قلت للنفس وقد جزنا الوصيда
عجتي لا ينفع الحزم ويديدا^(٢)

(١) تندت : ابتلت بالدموع .
(٢) الوصيда : السر الضيق المطبق .

ودعي الهيكلَ شئت ناره
 تأكل الركعَ فيه والسجودا
 يتمنى لي وفائي عودة
 والهوى المروح يأبى أن يعودا
 لي نحو اللهب الذاكبي به
 لفئة العود إذا صار وقودا^(١)

لست أنسى أبدا ساعة في العمر
 تحت ربح صفتت لارتقاص المطر^(٢)
 نوحت للذكر وشكت للقمر^(٣)
 وإذا ما طربت عريدت في الشجر
 هالك ما قد صببت الريح بأذن الشاعر
 وهي تغري القلب إغراء الفصيح الفاجر :
 « أيا الشاعر تغفو تذكر العهد وتصحو
 وإذا ما التام جرح جد بالتذكر جرح^(٤)

(١) الذاكبي : المشتعل ، المتأجج .

(٢) ارتقاص المطر : حركة المطر أثناء انهياره بغزارة .

(٣) الذكر : الذكريات .

(٤) التام : الشفي ، أي يرى وشفي .

فتملّم كيف تنسى وتعلّم كيف تمحو
أو كلّ الحب في رأ يلك غفرانٌ وصفح ؟

هاك . فانظر عسدد الرملِ قلوباً ونساء
فتخيّر ما تشاء ذهب العمرُ هباء
ضلّ في الأرض الذي ينشدُ أبناء السماء
أيّ روحانية تعد صر من طينٍ وماء !

أيها الريح أجّل ، لكنّما
هي حبيّ وتعلّاني ويأمني
هي في الغيب لقلبي خلقت
أشرقت لي ، قبل أن تشرق شمسي
وعلى موعدها أطبقت عيني
وعلى تذكّارها وسدت رأسي

جئت الريح ونادته شياطين الظلام
أختماً كيف يحلو لك في البدء الختام ؟
يا جريحاً أسلم . الجرح حبيباً نكاه
هو لا يبكي إذا الناعي بهذا نبأه

أيها الجبار هل تُصرع من أجل امرأه ؟

يا لها من صيحة ما بعثت
عنده غير ألم الذكر^(١)
أرقت في جنبه ، فاستيقظت
كبقايا خنجر منكسر
لمس النهر وناداه له
فمضى منحدرًا للنهر
فأضرب الزاد ، وما من سفر
دون زادٍ غير هذا السفر^(٢)

يا حبيبي كلُّ شيء بقضاء
ما بأيدينا خلقنا نساء
ربما تجمعنا أقدارنا
ذات يوم بعدما عزَّ اللقاء
فإذا أنصر خلُّ خلته
وتلاقينا لقاء الغريباء

(١) الذكر : الذكريات .

(٢) ناضب : فارغ .

ومضى كل* إلى غايته
لا تقل شئنا، وقل لي الحظ* شاء

يا مُفَنِّئِي الخلد ، ضيّعتَ العُمُرُ
في أناشيد 'تفَنِّئِي للبشر'
ليس في الأحياء من يسمعا
ما لنا لنا نفني للحجر
للجہاداتِ التي ليست نعي
والرمياتِ البوالي في الحفر^(١)

غنىها ، سوف تراها انتفضت
ترحم الشادي ، وثبكي للوتر

يا نداء* كلما أرسلته
رُدْ* مقهوراً وبالحظ* ارتطم
وهتافاً من أغاريد المنى
عساد لي وهو نواح وندم
'رَبِّ' تمثالِ جمالِ وسنا
لاح لي والميش شجو وظلم

(١) الرمياتِ البوالي : الجثث البالية ، يقصد الموتى .

ارتقى اللحن عليه جاثياً
ليس يدري أنه 'حسن أصم'^(١)

هدأ الليل ولا قلب له
أيها السامر يدري حيرتك
أيها الشاعر خذ قيثارتك
غنّ أشجانك ، واسكب دمعك
ربّ لحنٍ رقص النجم له
وغزا الشّعب ، وبالنجم فتك
غنّ ، حتى ترى ستر الدجى
طلع الفجر عليه فانهتك

وإذا ما زهرات 'ذعرت'
ورأيت الرعب يغشى قلبها
فعرفتي واثد واعزف لها
من رقيق اللحن ، وامسح رعبها

(١) جاثياً : راکماً .

ربما نامت على مهد الأسى
وبكت منصرخات ربها
أيها الشاعر ، كم من زهرة
عوقبت ، لم تذّر يوماً ذنبها !

أقبلي كالصلاة

للشاعر محمود حسن إسماعيل

هو الشاعر الوحيد - من بين شعرائنا الأحياء (١) - الذي آثرت أن اضمّن هذه المجموعة إحدى قصائده العاطفية ، بل أحلى ما قاله في الحب : قصيدته « أقبلي كالصلاة » ، التي يضمها ديوانه « هكذا أغني » الذي صدر عام ١٩٣٧ ، وقبله كان الديوان الأول « أغاني الكوخ » عام ١٩٣٤ ، ثم تتابعت رحلة الشاعر الثرية والخصبة من خلال دواوينه : « أين المفر » ، « نارٌ وأصفاد » ، « قباب قوسين » ، « لا بد » ، « التائهون » ، « صلاة ورفض » ، « نهر الحقيقة » ، « وهدير البرزخ » .

في شعر محمود حسن إسماعيل مذاق خاص ، ما أسرع ما يضافعنا ونحن نتأمل كلماته وأنغامه ، مذاق يختلط فيه عبير صعيد مصر ، بروائح الريف المصري ، بطقوس العبادات المتراكمة على ضفتي الوادي على مدار التاريخ السحيق ، فرعونية وقبطية وإسلامية ، ويختلط فيه أيضاً تكوين الشاعر المتكسّ،

(١) توفى الشاعر عام ١٩٧٧ .

على ثقافة شرقية إسلامية ، ترفدها تطلعات الشاعر المستمرة
الى الانفتاح على آفاق التجربة الشعرية المعاصرة ، في الوطن
العربي ، وعلى الصعيد الانساني كله .

هذا المذاق الخاص ، المتميز ، المركّب ، هو الذي يجعلنا
نكتشف أن لشعر محمود حسن إسماعيل قاموساً خاصاً ، قاموساً
فريد الدلالات والإيحاء ، عميق الهمس بالصور والرموز ، لا بدّ
من اكتشاف أغوار الشاعر - الضاربة الأعماق في التاريخ
والحياة - للوصول إلى حقيقة هذه الدلالات ، وإعطائها
ما يطابقها في عالم الصحو ، عالم النثر اليومي ، معانيها المباشرة ،
وإلا ظلت مغالقة هذا القاموس الشعري متأبّيةً علينا
لا تمنحنا نفسها ، ولا تكشف لنا عن حقيقة مراميها ، قبل
أن نستطيع الكشف عن نوعية هذا الشاعر المميز ، وطبيعة
وجدانه الشعري المتكاثف ، المتعدد الدوائر والروافد
والأصول .

يلفت النظر في شعر محمود حسن إسماعيل أيضاً ، فضلاً عن
هذا المذاق الخاص والقاموس الشعري الخاص ، مصريته ،
طابعه المتناغم مع روح الانسان المصري في صدامه وارتطامه
مع بعمدي الزمان والمكان ، هذه المصرية شيء أكبر من مجرد
الاهتمام التسجيلي بظواهر الحياة أو البيئة ، أعمق من مجرد
تناول مألوف الحياة على وجه هذا الوادي في أشجارها ونباتاتها
وألوانها ، إنها نفاذ الى السر البعيد في وجدان الانسان ، قدرة

على استكنائه الأغوار البعيدة في أعماقه ، تلك الأغوار التي
يتاح لشتى الروافد والجداول أن تصب فيها ، وسرعان ما
تتمثلها ، وتحفظ لنفسها - بعد ذلك - سميتها الأصل غير
مشوب ، وإن أصبح أكثر ثراء وعمقا وخصوبة .

هذه المصرية كامنة أعمق الكون فيما يمكن تسميته بـ «السر»
هذا الخاطر الكوفي الملحّ على محمود حسن إسماعيل : الشاعر
والإنسان ، وهو السرّ نفسه الذي استوقف المصري القديم
أمام تجربة الشروق والغروب فبنى الأهرام واكتشف معنى
الخلود ، وأمام فيضان النيل والمحساره فعبد النيل وقدم
الحياة ، واستوقف المصري الحديث أمام هتاف المآذن ورنين
أجراس الكنائس ودوران دولاب الحياة على ظهر هذا الوادي
المثقل بتراكمات السنين وأعباش الأزمنة وميراث الأجيال .
وما يزال السر الغامض لفرأ ، لكنه في أعماق شاعرنا إغراء
يقظ ، ونداء صامت أخرس ، وتوهج دام في لحظات الغيبوبة
الروحانية ، والانسلاخ من نثر الواقع اليومي ، بحسّ عن شعر
الحياة في ليلاها الساكن الوديع .

وبالإضافة إلى المذاق الخاص والقاموس الشعري المتفرد ،
والبحث الدائب عن السرّ ، تقمصاً وتعبيراً ، إفضاءً وخوفاً من
التصريح ، يدهشنا في شعر محمود حسن إسماعيل هذه الرؤية
الكلية للإنسان والحياة ، إن التجارب الشعرية عنده تستمد
قيمتها وغناها من هذا الإطار الأكبر الذي نطالها فيه ،

فيبدو الجزء' في إطار الكل ، وتكتسب التفاصيل الصغيرة معناها الدائم والسرمدى ، ويصبح الإنسان المنفرد على ظهر هذا الكوكب وتراً في لهاة الطبيعة وبضعة من الإرادة العليا القاهرة ، وحصة في جسر الوجود البشري المتراكم ، وينفس القدر : تصبح الشجرة المنفردة صوتاً شعرياً يضح بحذاء الطبيعة للكون ، وترديداً لصوت الرياح المعبر عن ملحمة الوجود والعدم وهكذا ..

محمود حسن إسماعيل إذن هو شاعر التجارب الكبرى ، شاعر الرؤى الكونية الشمولية ، شاعر ما وراء الجزئي والمنزل والمنظور ، إن - شيئاً ما - يستهوي دائماً بصيرته الشعرية النفاذة ، فإذا هو يطالع في الوجه الواحد عشرات الوجوه ، وفي المعنى الواحد عشرات التنويعات من المعاني ، وفي الصوت الواحد جنازة " كاملة من الأصوات أو سيمفونية متداخلة - ربما غير متجانسة - من الحوارات !

نرى ، إلى أي مدى يكشف محمود حسن إسماعيل من خلال رحلته الشعرية المتنامية ، المثقلة ببهات العطاء الشعري الرفيع عن هذا السر ؟ عن إطار هذه الرؤية الكونية ا متى يُفصح الشاعر عن محاور قلقه العميق ، ووتر شجنه الكوني" المأساوي ، ويضع أيدينا على حائط مبعك الحقيقي دون جزع أو خجل أو وجل ؟

أنا والنأي والحياة

وسرّ في طوايا النفوس 'يخفيه برقع !
كلما سلّ شعاي من الليل ،
على موضع ، 'يداريه موضع
لست في حيرة ، ولا في وقوف
فع الله نظرتي تتطلع
كلما قرّ طائر ، حاصرته ..
فأثاما من حالك التيه يخشع
هدأة .. وانطلاقة
وإذا النور على الدرب
يستهل ، ويسطع !

وتأملوا معي بعض عناوين دواوينه : قاب قوسين ،
لا بدّ ، صلاة ورفض ، نهر الحقيقة ، هدير البرزخ ، لتدركوا
أي ربح قلأ هذا الشراع ، وأية وجهة يقصدها هذا الملاح
المغامر ، الضارب أبداً في 'عباب المجهول !

ولكن لماذا هذه القصيدة بالذات .. « أقبلي كالصلاة » !
إنها ليست من ديوانه الذي أفرد به بكامله لتجربة حبه العظيم
الدمر ، هذا الحب الذي عصف به الشك ، قدمر جدران
معبده ، وزلزل قوائم محاريبه - ديوان « أين المفرّ » ..
وليست من شعره الأخير ، الذي يتآزر فيه نضج التجربة ،

واكتمال الأدوات الشعرية ، ووفرة المواد الأولية التي أتاحت
للشاعر ، الذي أصبح أقل خشونة وقسوة مع نفسه ومع
الحياة ، وإن كان أشد توهجاً بحقيقة الشعر ومتطلبات الفن .

ربما كان اختياري لها السبب ذاتي محض ، فديوان « هكذا
أغني » هو أول ما وقعت عليه من شعر محمود حسن إسماعيل ،
كنت وقتها حدثاً غريباً ، مفتوناً بشعراء المدرسة البيانية
المحافظة ، القوية النسيج ، الرصينة القوافي ، الجزلة التعبير : من
أمثال شوقي وحافظ والجارم ، وكما يتميز الضد بالضد ، فقد
تمايز في نفسي شعر محمود حسن إسماعيل على الفور ، واستهواني ،
فانكبت عليه وأعرضت عما سواه ، وكان دليلي - فيما بعد -
إلى حساسية الشعر المعاصر كله بوجه عام ، والشعر الجديد ..
بوجه خاص .

في ذلك العهد كانت قصيدة « أقبلي كالصلاة » مزموراً
للحب ، نتناشده فيما بيننا ، ونقرنم بإيقاعاته وموسيقاه ،
المتندة ، الطويلة النفس ، ثم اختبفتنا صور القصيدة ولوحاتها
الشعورية المتتابة : صورة الزورق الشريد الحيران في مهب
الريح العاتية تحت جنح الدياجير ، والشاطئ المرجى بعيد ..
ولا أمل يلوح ، وصورة الأيكة الوارفة الظلال تمنح الأمان
والسكينة ، والواحة السخية يفيء إليها العاشق المجهد هرباً
من هجير الأسى ، وصورة الفجر منسكباً على الحقول يمنحها
حياة وصلابة ونشوة وتهللاً ، وصورة أنسام الفجر ترفرف

وتذوب على حفيف السنابل ساكنة شعر الحياة الخامس المهنح،
 وصورة هذه الـ « أنت » التي يكررها الشاعر في مستهل ثمانية
 عشر بيتاً من قصيدته ، كل بيت منها ينطق بقسمة من قسرات
 هذه الحبيبة ويضفي لوناً إلى لوحها الأخاذة الغاتنة ، وهي
 تذكرنا بصورة الـ « أنت » التي صاغها أبو القاسم الشابي في
 رائعته « صلوات في هيكل الحب » والتي استهل بها أيضاً
 اثني عشر بيتاً من أبيات قصيدته ، كما يذكرنا البحر الشعري
 لقصيدة محمود حسن إسماعيل بالبحر الشعري: النفسي والنغمي
 الذي صيغت منه قصيدة الشابي وهو « بحر الحفيف » ،
 بتفصيلاته المسرحية الممتدة كأنها حركة مجذاف يضرب وجه
 الماء في هدوء ودعة وانسياب ، كذلك تذكرنا صرخات محمود
 حسن إسماعيل ونداءاته في ختام قصيدته واستغاثاته المتتابعة
 بحبيبته التي يراها قادرة على أن تمنحه الحياة والإبداع والطموح:

فتعالى نقيباً عن ضجة الدد
 يا ، ونغضي عن الوجود ونرحل
 وإلى 'عشنا الجميل ، ففقه
 هزج' للهوى ، وظل' وجدول
 أقبلي .. قبل أن قيل به الريد
 ح ، ويهوي به الفناء المزعجل
 أقبلي .. فالجراح ظمأى ، وكأس' الـ
 حب' نكلى ، والشعر' ناي' معطل

تذكرنا صرخات هذا الختام ، بصرخات الشابيّ ونداءاته
المتتابعة أيضاً في ختام قصيدته :

أنقذيني ، فقد ستمتُ ظلامي
أنقذيني ، فقد مللتُ ركودي

ثم وهو يقول :

وحرامٌ عليك أن تهدي ما
شاده الحسن في الفؤاد العميدِ
وحرامٌ عليك أن تسحقني آ
مالَ نفسٍ تصبو لعيشٍ رغيدِ
فالإلهُ العظيمُ لا يرحمُ العبثَ
دَ ، إذا كان في جلال السجودِ

* * *

يبقى أن 'تتاح' لهاتين القصيدتين دراسة نقدية مقارنة ،
تكشف عما بينهما من مناخ نفسي مشترك ، وتخطيط شعري
متماثل ، كما تكشف عما فيها من تفرّد وتمايز وأصالة ، وكلتاها
صادرة عن وجدان شعري عميق ، تمتلئ بتجربة الحياة ،
شديد الحساسية لإيقاعات الكون ، متلاحم النسيج مع صور
الطبيعة وظلالها ، فناءً صوفياً ، وانجذاباً روحياً ، ونزوعاً
إلى التطهير والتطهر في محراب الطبيعة ، وديرتها الأقدس ،

وهي نزعة حارة متوهجة، نطالها دائماً في أشعار الرومانتيكيين
الكبار ، الذين كانت لهم صلواتهم وغنائياتهم وأشواقهم
حُلماً دائماً ينشد الالتحام بالطبيعة والفناء فيها والتطهر من
خلالها ..

ولسوف يجد النقد المقارن في تأمله لهاتين القصيدتين وكشفه
عن عالم الشاعرين من خلالها ، قيمة فنية جديرة بالدراسة
والتنويه ، وبأن قوضع بين أيدي شدة الأدب ودارسيه وأمام
أبصارهم ، متضمنة لونا من النفاذ إلى أعماق الإبداع الشعري
في أصفى حالات تدفقه وانسيابه ، وأكثرها عذوبة وجمالاً
وشفافية ..

'نرى ، مقى بقدر' لشعرنا العربي أن يفني بمثل هذه
الصرخات الكونية الحارة ، المتوهجة بنفاذ الرؤية الشعرية
والوعي الإنساني ، وأن تضاف إلى « ديوان الحب » فيه مثل
هذه التراثيل الصادقة النفاذ ، العميقة الهمس ، الثرية العطاء ا

* * *

أقبلي كالصلاة

أقبلي

أقبلي كالصلاة ، رقرقها الندى
لُكُ ، بحرابٍ عابدين متبتل

أقبلي آية من الله علينا
زفتها للوجود وحي متزل

أقبلي ، فالجراح ظمأى ، وكأس الـ
حب ثكلى ، والشعر ناي ممطّل

أنت لحن على فمي عبقرى
وأنا في حدائق الله بلبّل

أقبلي .. قبل أن تميل بنا الرد
حُ ، ويهوي بنا الفناء المعجّل

زورقي في الوجود حيران شاكٍ
مثقل بامى ، شريد ، مضلل

أزعجته الرياح ، واغتناله اللّـي
ل' ، ينجح من الدياجير مُسبل^(١)
فهو في ثورةِ الحُضْمِ غريبٌ
خَلَطَ النُّوحَ بامنى وتقتل^(٢)
أقبلي يا غرامِ روحي ، فالشطُ
بعيد ، والروح باليأس مثقل
وغمام الحياة أعشى سوادي
ونور المنى بقلبي ترحل^(٣)
أنا مَيِّتٌ تغافل القبر عني
وهو إن يدرِ شِقْوَتِي ما غمَل
فاسكبي لي السّنا وطوفي بنعشي
ينعش الروح سحرك المتهلل

(١) الدياجير : الظلمات ، جمع ديجور . الجتح من الليل : الطائفة منه .
مسبل : مسدل .

(٢) الحُضْم : البحر العظيم المتلاطم الموج .

(٣) أعشى سوادي : غطى عل عيني

أنت لي :

أنت نبمي ، وأيكتي ، وظلالتي
وخييلي ، وجدولي المتسلسل^(١)

أنت لي واحة أفيء إليها
ومجير الأسى يجني 'مشمعل

أنت ترنيمة الهدوء بشعري
وأنا الشاعر الحزين المبلبل

أنت تهويده الخيال لأحزا
في ، بأطيان نورها أتعطل^(٢)

أنتِ كأسِي وكرمقي ومدامي
والطتلا من يديك سكر محلل^(٣)

(١) الأيكة : الشجرة الكثيفة المتلفة الأغصان .

(٢) أتعطل : أراسي النفس .

(٣) الطلا : الخمر .

أنت فجرى على الحقول ، حياة
وصلاة ، ونشوة ، وتهلل
أنت تغريده الخلود بألحسا
في ، وشعر الحياة لتغزو مهلل^(١)
أنت طيف الغيوب رفرف بالرح
سـ والطهر والهدى والتبتل
أنت لي توبة إذا زلّ عمري
وصحا الإثم في دمي وتلمل
أنت لي رحمة براهـ شعاع
هل من أعين السما وتنزل^(٢)
أنت لي زهرة على شاطئ الآـ
لام تروى بمهجتي ، وتظلل^(٣)
أنت شعر الأنسام وسوست الفجـ
سـ ، وذابت على حفيف السنبـ

(١) الغزو : الغراء الذي لا معنى له .

(٢) براها : خلقها وأوجدتها .

(٣) المهجة : دم القلب ، يقصد بها « الروح » .

أنت سحرُ الغروب، بل موجة الاشراق،
عن سحرها جناني يسأل^(١)

أنت صفوُ الظلال تسبح في النهر،
وتلهو على ضفاف الجدول

أنت عيد الأطياف فوق الروابي
أقبلني، فالربيع للطيور أقبل

أنت هولي، وحيرتي وجنوني
يومَ للحسن زهوةٌ وقدلُّل

أنت دبر الهوى، وشعري صلاة
لك طابت ضراعتي والتدلُّل

أنت نبع من الحنان، عليه
أطرق الفن ضارعاً يتوسل

أعين للخشوع تغري، فخلِّب
سها على لوعي تفضُّ وتُسبِّل^(٢)

(١) جناني : فؤادي وقلبي .

(٢) تفض وتُسبِّل : تفلق وتنطبق .

واتركيها وسحرها يتأدى
علما « بابل » بنجواه تشغل

هو فني وملهمي .. فابعثيه
فهر من زهوه شحيح مبخل

يتغافى على الجفون ، فإن نا
جيته ، لج في الكرى وتوغل

وانتشى من سناك وانساب في لح
ظك يحسو الضياء منه وينهل^(١)

وانبرى من جفونك البيض كالآد
دار يُردي كما يشاء ويقتل

ليت لي من صراعه كل يوم
غزوة في سكون قلبي تجلجل

ولك الصوت ناعما عادة الشر
ق فأضحى حنينه يقرسل

(١) يحسو : يرتشف .

نبرات كأنها شَجَنُ الأو
 تارِ في 'عودِ عاشقٍ مَرَحَلٍ^(١)
 أو حفيفُ الأذَانِ في مسمع الفج
 سرِ نديّ الصدى، شديّ المنهل
 أو غناءُ الظِّلَالِ في خاطر الغدُ
 رانِ شِعْرٍ في الصمتِ عانٍ مكبَّلٍ^(٢)
 أو نشيد أذابه الأفق النّـا
 ئي ، وغناء خاطري المتأمل^(٣)
 ولك البسمة الوديعة طهرُ
 وصفاء ، وصبوة ، وتفزُّل
 لذة الحمس في دمي تنقل الرو
 ح لواءٍ بصفـوِ عُمري مظلِّل

(١) مَرَحَل : متنقل ومفارق .

(٢) حان مكبَّل : أسير مقيد .

(٣) النائي : البعيد .

فاسكيبها على جنائي ، وخلصي
سحرها في مشاعري يتهدد
ولك الهداة التي تفرح الحسن
فيروى من السكون ويشمل
واحة للجمال ، قلبي فيها
من أسي الدهر ناسك متعزل
علمتني ظلالها كيف أنسى
صخب الوهم وهو عصف مزلزل
ولك العفة التي عاد منها
« مريم » ، الستور فوقك مسبل

فتعالي :

فتعالي نقيب عن ضجة الدذ
يا ، ونغضي عن الوجود ورحل

وإلى عشنا الجميل ، ففيه
 "هزج" للهوى، وظل"، وسلسل^(١)
 وعصافير للننى تتغنى
 بالترانيم بين عشب وجدول^(٢)
 وغرام^٣ مقدس ككاد يضوي
 نوره العذب فى سمانا ويشعل^(٣)
 ووفاء يكاد يطعم' للذئب .
 يا بشرع إلى المحبين مرسل
 عاد للعش كل طير، ولم يبـ
 سق سوى طائر شريد محب^(٤)
 هو قلبي الذي تناسيت بلوا
 ه' ، فأضحى على الجراح يولول

(١) هزج : غناء ومرح . سلسل : الماء العذب الجاري .

(٢) الترانيم : جمع ترنيمه ، الأغنية أو الأنشودة .

(٣) يضوي : يتوهج .

(٤) المحب : المجنون ، من فقد الوعى والاتزان .

أقبلي .. قبل أن تقيل به الريد
ح' ، ويهوي به الفناء الممجل^(١)
أقبلي .. فالجراحُ ظمأى ، وكأس الـ
حب ثكلى ، والشمرُ ناي معطل

(١) الممجل : السريع الأكيد الحدث والوقوع .

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة
هذا الكتاب	٥
فتاة الخدر	١٣
نظم	٢٣
المؤسة	٤١
بشينة	٥٧
لبنى	٦٩
عزة	٨٣
وأعطرت لؤلؤا	٩٥
فوز	١٠١
وحيد المفنية	١١٣
أراك عصي الدمع	١٢٩
يا ظبية البان	١٤١
فاروق شوش	
المنخل البشكري	
عمر بن أبي ربيعة	
مجنون ليلي (قيس بن الملوح)	
جميل بن معمر	
قيس بن ذريح	
كثير عزة	
يزيد بن معاوية	
العباس بن الأحنف	
ابن الرومي	
أبو فراس الحمداني	
الشريف الرضي	

١٥١	دوقلة المنبجي	اليتيمة
١٦٣	ابن زريق البغدادي	قمر في بغداد
١٧٣	صفي الدين الحلي	مجلس الحبيب
١٨٧	ابن زيدون	أضحى التثنائي
٢٠١	الحصري القيرواني	يا ليل الصب متى غده
٢٠٩	أبو القاسم الشابي	صلوات في هيكل الحب
٢٢٧	علي محمود طه	القمر العاشق
٢٣٩	إبراهيم ناجي	الأطلال
٢٦٥	محمود حسن إسماعيل	أقبلني كالصلاة

رقم الإيداع: ٢٢٩٧ / ١٩٩١
التقديم الدولي: ٨ - ١٠٥٠ - ٠٩ - ٩٧٧

مطابق الشروط

العدد ١٦ شارع حوران حمص - هاتف ٣٩٣٤٨١٤ - ٣٩٣٤٥٧٨

بيروت - من ليد ٨١٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

To: www.al-mostafa.com